مرحبًا...

هل من أحد هناك؟



تأليف: جوستاين جاردر

تعريب: أماني العشماوي

دار الشروق

مرحبًا...

هل من أحد هناك؟

تأليف: جوستاين جاردر

تعريب: أماني العشماوي

دار الشروق

مرحبًا.... هل من أحد هناك؟

الطبعة العربية الأولى 2001

عن الكتاب النرويجي HALLO? - ER DET NOEN HER?

تأليف: چوستاين جاردر
تعريب: أماني العشماوي

تصميم الغلاف والرسوم: وليد طاهر

دار الشروق

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٩٨٠٨/٢٠٠٠
I.S.B.N: 977-09-0648-4

دار الشروق :القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: dar@shorouk.com

مقدمــة

سقط "ميكا" من مركبة فضاء، وتعلق على شجرة تفاح في حديقة "چو"..

من الصعب أن نعرف من منهما كان أكثر اندهاشًا بهذا اللقاء من الآخر..

ولكنهما، بعد أن تعارفا، اكتشفا مدى التشابه بينهما، وراح كل منهما يحكي للآخر عن الحياة على كوكبه: كيف بدأت؟ وكيف تطورت؟

وعندما اختفى ميكا، بالغموض نفسه الذي ظهر به، وجد "چو" بدلاً منه أخًا مولودًا جديدًا.. مندهشًا من كل شيء على الأرض، مثل اندهاش ميكا تمامًا.

الطيور والأسماك والبرمائيات والزواحف، والثدييات والديناصورات، ورواد الفضاء.. وأرنب صغير أبيض: كل منهم له دوره المهم في هذه القصة الساحرة التي ألفها جوستاين جاردر، مؤلف قصة "عالم صوفي".

إنها قصة مثيرة للتخيل والتأمل، تحث الأولاد على مناقشة الآراء الجديدة والأفكار غير التقليدية..

ليس من الضروري أن يوافق القارئ على كل ما جاء بها من معلومات وآراء، وإنما المهم أنها تثير العقل، وتبعث على التفكير. وتساعد الأولاد على تصور وجهات النظر المختلفة، وتوجههم إلى بحث الاحتمالات الكثيرة للقضايا والنظريات المطروحة..

إنها قصة تثير اهتمامهم بالقضايا والنظريات العلمية، وتفتح لهم آفاقًا واسعة على العالم من حولنا، وعلى مجالات أساسية للمعرفة العصرية، وتدعوهم إلى محاولة كشف الجديد منها، ومعرفة المزيد عنها.

السّماء



كاميلا العزيزة،

عندما كنتِ معنا في عطلة نصف العام الدراسي، وعدتُك أن أقص عليك قصة.. وها أنا ذا أفي بوعدي:

لقد اخترت أن أكتب إليك اليوم لسبب مخصوص، فقد اقترب عيد ميلادك، وستصبحين في نفس عمري عندما كنت أنتظر مولد أخي الصغير.. فرأيتُ من المناسب أن أحدثك عن "ميكا".. لعل حديثي يزيدك معرفة بهذا العالم الذي نعيش فيه.

هل تذكرين الأوقات التي قضيناها معا؟.. هل تذكرين سرطانات البحر التي كنا نصيدها من الخليج الذي نربط فيه قاربنا؟ والنجوم التي كنا نرصدها بالمنظار المكبِّر؟ والفطائر التي صنعناها في الليلة التي غطى فيها السحاب النجوم؟ كثيرًا ما أتذكر هذا الأسبوع الذي أمضيناه معًا.. لقد كان وقتًا رائعًا.

على الرغم من أن زمنًا أطول قد مضى، فإنني مازلت أذكر الكثير عن "ميكا" أيضًا.. لا أدّعي أني أذكر كل شيء كأنه حدث بالأمس.. لكني أذكره كأنه حدث منذ أسبوع مثلاً.. فلا بد أني نسيت بعض التفاصيل، وتخيلت بعض التفاصيل الأخرى غيرها.. ولكن هذا ما يحدث دائمًا كلما حاولنا أن نَصفَ أحداثاً وقعتْ منذ زمن بعيد.

مازلتُ أذكر البداية بوضوح شديد .. يمكنني وصفها بأنها بداية عادية جدًا .. هذا إذا عَدَدْنا انتظار أن يولد لك أخ أو أخت أمرًا عاديًا .. أنا شخصيًا لا أعُدُّه أمرًا عاديًا .. فالأشياء من حولنا لا تكون دائمًا أشياء عادية كما نتصورها .

في تلك الأيام، كنا نربّي بعض الدجاجات، التي تنبش في أرض الحديقة طول الوقت.. هل تعتقدين أن الدجاجة شيء عادي؟.. أنا أيضًا كنتُ أعتقد ذلك، قبل أن ألتقي بميكا .

تصوري نفّسك رائد فضاء، يجوب الفضاء الخارجي لعدد لا يحصى من السنين.. ألا تعُدّين نفّسك محظوظة فعلاً إذا رأيتِ دجاجة واحدة طول هذه المدة؟..

هناك المليارات من النجوم في هذا الفضاء الخارجي المتسع الذي نسميه الكوْن.. والقليل من هذه النجوم له كوكب أو كوكبان أو أكثر، يدور حوله في مجرًى يقال له المدار..

.. بعد أن تسافري مئاتِ السنين، وربما آلاف السنين.. قد تَصِلين إلى كوكب عليه نوع من الحياة.. وحتى لو كانت هناك كائناتٌ حية على هذا الكوكب.. فاحتمال أن تعثري هناك على دجاجة احتمال بعيد جدًا .. لا أظن أنه يحدث أبدًا .

لا أظن أن هناك دجاجًا في أي مكان آخر في هذا الكون.. إذن، من الصعب أن نسمّي الدجاجة شيئًا عاديًا ..

وبمناسبة الحديث عن الدجاج.. هل تعرفين أن الدجاجة

تستطيع أن تبيض بيضة كل يوم تقريبًا؟.. هل سمعتِ عن طائر آخر يستطيع ذلك؟

بدأتُ قصتي بهذا الكلام لأن ميكا هو الذي علَّمني أنه لا يوجَد شيء عادي في هذه الحياة. فأحيانا يتحدث الناس عن يوم عادي.. وهذا شيء يزعجني جدًا.. لأنه لا يوجد في الحياة يومان متشابهان تمام الشبه.. ونحن لا ندري كم يوما سيأتي بعد ذلك.. فكيف يكون هناك يوم عادي؟!

أما التعبير الآخر الأسوأ من تعبير "دجاجة عادية" و"يوم عادي".. فهو الحديث عن "صبي عادي"، أو" بنت عادية".. إنه تعبير نستعمله عندما لا نكلِّف أنفُسنا محاولة التعرف على الناس وفهْم حقيقتهم.

كنتُ في ذلك الوقت أنتظرُ أن يولَد لي أخ أو أخت.. وكان أفراد عائلتي يتساءلون طولَ الوقت: هل سيكون المولود صبيًّا أم بنتًا؟.. أما أنا فكنت متأكدًا أن هذه الكتلة التي في بطن أمي ستكون صبيًّا.. لا أدري لماذا كنتُ متأكدًا لهذا الحد.. ربما لأني كنتُ أتمنى أن يكون لي أخ صغير..

فنحن البشَر نؤمن دائمًا بما نريده لأنفُسنا.. وقد كان من الصعب عليّ أن أتخيل الحياة مع أخ صغير.. إلا أنني، على الأقل، كنتُ أعرف أنه سيشبهني ولو قليلاً.. أما الأخت، فكان من المستحيل عليّ أن أتخيلها.

أخبرتْني أمي أن الجنين يرقد في بطنها مقلوبا.. وأنه يركلها طول الوقت حتى أتعبها.. فقلت لنفسي: "إن أخي الصغير هذا يحتاج إلى أن أعلِّمه كيف يكون مهذَّبا". وفكَّرتُ في أن أنصحه بأن يتوقف عن ركل أمي كما خطرَ ببالي أنه سيحتاج إلى الكثير من النصائح والتوجيهات في حياته بعد ذلك..

فنحن نأتي إلى هذا العالَم لا نعرف شيئًا عن آداب السلوك.. ونقضي سنواتٍ عديدةً قبل أن نتعلم احترام الآخرين ومراعاة مشاعرهم.

وفكرتُ في أن أخي الصغير هذا سيأتي إلى عالَم غريب عنه تمامًا.. لا يعرف عنه شيئًا.. وأنه سيكون في وضع لا أحسُده عليه أبدًا.. فهو لابد أن يعتاد على أشياءَ كثيرة جدًّا عندما يخرج إلى العالَم.. فهو يجهل كل شيء خارجَ ذلك المكان المظلِم الذي هو فيه الآن.

كنتُ أفكِّر باهتمام شديد، كيف سأحكي له عن كل ما يحيط به في هذا العالَم.. فأخي الصغير هذا لم يأت إلى هذا العالَم من قبلُ.. لا يعرف الشمس ولا النجوم، ولم ير الأزهار ولا الحيوانات.. بل إنه لا يعرف أسماء هذه الأشياء..

ولابد أن أتعلَّم أنا نفسي الكثير من الأشياء التي لا أعرفها لأعلِّمها له.. فأنا مثلاً لم أكن أعرف الفرْق بين النمر والفهد.. أعرف طبعًا أن جلِد كل منهما مبقع.. ولكن شكل البقع على جلد النمر يختلف عن بقع جلد الفهد.

ولكن المشكلة، أن هناك آلاف الأنواع من الحيوانات على هذا الكوكب علينا أن نعرفها ونتعلم عنها الكثير.. أظن أني سأقضي وقتا طويلاً أعلّم فيه أخي الصغير الفرق بين القطط والكلاب مثلاً.

لقد أمضى الإنسان آلافَ السنين يطْلق اسمًا على كل حيوان ونبات في هذا العالم من حولنا، ولم ينتهِ بعدُ.. أظن أن الإنسان لا يستطيع في حياته القصيرة أن يتعلم كل شيء.

وقعت هذه الأحداث عندما كنتُ في الثامنة من عمري.. في المساء.. بينما كنتُ نائمًا أحلُمُ.. أيقظني أبي..

وقال: "استيقظ يا جو.. فالجنين في طريقه إلى الخروج".

جلستُ في الحال، وقلت: "المفروض ألا يصل الآن.. فنحن في منتصَف الليل.. والخالة هيلين لم تأتِ بعدُ".

قال أبي: "بعض الأطفال يقررون الوصول في هذا الوقت.. فهم لا يعرفون الليل من النهار.. وقد اتصلتُ بالخالة هيلين، وستَحضر حالاً.. فلابد أن تنتظرها وحدك، للأسف.. لأني سآخذ أمك الآن إلى المستشفى".

كان أبي وأمي قد اتفقا مع الخالة هيلين على أن تَحضر إلى بيتنا، لترعاني، عندما يحين موعد ولادة الطفل.. لكن هذا الموعد قد بقي عليه أسبوع..

لقد تغيرت الحياة الآن ياكاميلا عما كانت عليه عندما كنتُ طفلاً في مثل عمرك.. فالأمهات الآن يأخذن أبناءهن معهن إلى المستشفى.. أما في تلك الأيام.. فكان الأطفال يبقّون في البيت عندما يخرج الآباء.. لذلك، لم أنزعج من بقائي وحدي في البيت.. فقد كان أمرًا معتادًا..

قلت لأبي: "سأكون على ما يُرام، وسألعب بمكعّباتي حتى تأتي الخالة هيلين".

في تلك الأيام، لم نكن نشتري قطعًا مخصوصة لعمل صاروخ بالمكعبات.. وإنما كنتُ أستعمل خيالي في تصميم الصواريخ.. كنتُ أتخيلُ ما أريد، ثم أنفّذه بمكعباتي.

ارتديتُ ملابسي بسرعة.. فقد كنتُ متلهّفًا على وصول أخي الصغير.. فالآن سيتوقف أخيرًا عن ركْل أمي في بطنها.. كما أنني لم أتمكن من الجلوس في حجرها منذ أسابيع.

ذهبتُ إلى النافذة لأرفع الستارة، فانفلتتْ إلى أعلى، وراحت تدور وتدور حول نفْسها.. ونظرتُ إلى السماء الموَشّاة بالنجوم.. كانت صافية بدرجة لم أرها من قبلُ.

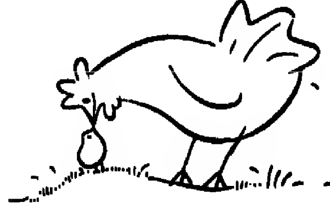
اندفعتُ إلى الطابق الأرضي. كانت أمي جالسة على مقعد ذي مسند، ممسكة ظهْرها بيديْها.. وقد أغمضتْ عينيْها وتقلّص وجهها من شدة الألم.

أردتُ أن أخبرها أن من الصعب على الإنسان أن يكون له أخ

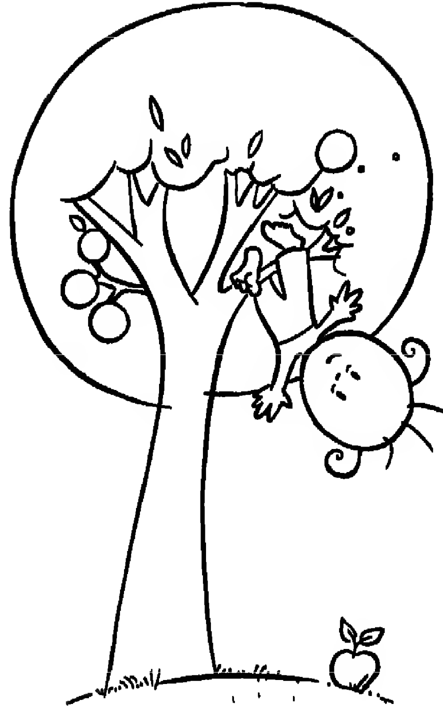
صغير.. لكني أجَّلتُ ذلك لوقت آخر، حتى لا أزعجها.. لأن أبي كان قد أخبرني أن ولادة الأطفال عمل صعب ومؤلم جدًّا..

غادر أبي وأمي البيت، واختفى ضوء السيارة بعيدًا، وكان الليل شديد الظلام.. لكنَّ أكثر ما أزعجني أنهما سينشغلان عني بالتفكير في ذلك لطفل الصغير الذي يشُق طريقه الآن، خارجًا من بطن أمي.

وقفتُ طويلاً على عتبة الباب.. ثم دخلتُ البيت، وأغلقتُ الباب خلفي.. كان البيت ساكنًا كأنه مهجور.. تمامًا مثل الفضاء الخارجي..



الحَديقة



عدتُ إلى غرفتي، وجلستُ على مقعد أمام النافذة.. جلست هناك فترة طويلة: أتأمل النجوم، وأتساءل إن كان هناك حياةٌ على كواكبَ أخرى.. أم أن أرضنا هي الكوكب الوحيد الذي عليه حياة في هذا الكَون المتسعِ.

كنتُ أشعر بالملل وأنا وحدي في البيت..

بينما أنا جالس.. بدأ الظلام يخفُّ، والنور يزحف، وتحول لون السماء من لون الحبر الكحلي إلى الأزرق الداكن.. وكان كل ما حولي ساكنًا.. فكنتُ أسمع صوت الأمواج وهي ترتطم بشاطئ الخليج الصغير الذي نربُط فيه قاربنا.

وفجأةً، اندفع شهاب ساطع، وعبَر السماء قريبًا مني..كأنه سيهبط في حديقتنا.. وكنتُ قد سمعت من قبل أن شهابًا يعبر السماء كلما وُلِدَ طفل جديد.. فربما كان هذا الشهاب بمناسبة مولد أخي الصغير.

لا أدري ما حدث بعد ذلك.. لكني سمعتُ صوتًا قادمًا من الحديقة.. وللحظة، تصوَّرت أن أبي وأمي قد عادا من المستشفى، ومعهما أخي الصغير.. فاتَّكأتُ على حافة النافذة لأتأكد من ذلك.. فرأيتُ صبيًّا صغيرًا يتدلى من شجرة التفاح.. كان ذلك ميكا..

عرفت بعد ذلك أن ميكا كان محظوظًا، أولاً: لأنه سقط على شجرة التفاح. وثانيًا: لأن سرْواله اشتبك في غُصن الشجرة، فظل معلقًا في الهواء، ورأسه إلى أسفل، وقدماه إلى أعلى.. فلو أنه سقط في حوْض الورْد الذي زرعته أمي، لأصيب إصابة بالغة.

نزلتُ السلَّم بسرعة، واندفعت إلى الحديقة، نحو الصبي المعلَّق على الشجرة.

"لابد أنني أحلُم".. كانت تلك أوَّلَ كلمات نطَق بها.. فتعجبت من ذلك.. لأنني كنتُ متأكدًا أنني مستيقظ.

كان هذا الصبي لا يشبهني ولا يشبهكِ أبدًا ياكاميلا.. كان يبدو من عينيْه وفمِه وأذُنيْه أنه قادم من مكان آخَر.. لم أكن أعرف في ذلك الوقت أنه سقط من مرْكبة فضائية.. لكني لن أتعجب أبدًا لأنه كان يتكلم بلغتي.. فعندما يسقط صبي حقيقي من السماء.. لن تهمك أبدًا اللغة التي يتحدث بها.. فالمدهش حقًا أنه يستطيع الكلام.

قال الصبي مرة أخرى: "لابد أنني أحلُم".

كانت الأسئلة تتسارع في رأسي: "مَن هذا الصبي الذي على الشجرة؟.. وإذا كان ذلك حُلمًا حقًا.. فهل هو الذي يحلُم أم أنا؟.. وإذا كان هو الذي يحلم.. فكيف أكون أنا مستيقظًا في الوقت نفْسه؟.."

كان لا يزال متدليًا من الشجرة، يدور حول نفسه ببطء. وراح رأسي أنا أيضًا يدور معه.. ولم أدْرِ ماذا أقول له.

لكني تذكَّرتُ أنني كنت وحيدًا في غرفتي، أتأمل النجوم، وأشعر بالملل.. وأتمنى ألا أكونَ وحيدًا في البيت.. وبعد لحظة واحدة، رأيتُ أمامي صبيًّا متدليًا من شجرة التفاح.

.. أليس من الغريب أن تتحقق أمنيتي في الحال؟!.. من النادر أن تتحقق الأمانيُّ بهذه السرعة.

سألني الصبي: "من أنت؟".. قلتُ: "اسمي چو". قال: "وأنا ميكا.. لماذا تقف مقلوبًا هكذا؟!".. فضحكتُ.. فوضع إبهامه في فمه بسرعة.. ربما شعر بالإحراج عندما ضحكتُ.

قلتُ: "أنت الذي تقف مقلوبًا".

أخرج ميكا إبهامه من فمــه، وبسط أصابعه، وراح يلــوِّح بـها في الهـواء.. وقـال: "عندما يلتقي شخصـان، ويكون أحدهمـا مقلوبًا.. ليس من السهـل معرفة أيُّهمـا المقلوب وأيهما المعْتدل"..

أذهلتني الإجابة.. ولم أجد ما أقوله.

أشار ميكا إلى الأرض، وقال: "على أيِّ حال.. ليتّك تتلطف وتساعدني على الصعود إلى سطح هذا الكوكب".

قلت: "تقصد النزول؟".

قال: "بل الصعود"!

ركضتُ إلى مخزَن المعدات، وأحضرتُ مقصّا تستعمله أمي في تقليم الورد كما أحضرتُ صندوقًا قديمًا وجدتُه هناك ووضعته تحت الشجرة لأقف عليه.. ثم خلصتُ ميكا من فرع الشجرة.

نزل ميكا إلى الأرض، وظل واقفًا على رأسه.. مازلتُ أذكر دهشتي وإعجابي بقدرته على الوقوف على رأسه دون أن يستند إلى يديه.. وراحت عيناه تدوران، وتتأملان ما حوله، كأنه يستكشف المكان.. ثم استرعى انتباهه أن السماء فوقه..

.. عندئذ فقط أنزل ساقيه إلى الأرض.. ووقف قليلاً على ركبتيه.. ثم قام على قدميه وهو ينظر حوله بارتباك.

فتجرأت وسألتُه: "من أين أتيتَ؟".

قال: "كنتُ في سفينة فضاء، ورأيتُ أنني أقترب من كوكب عليه كائنات حية.. ففتحتُ الكُوَّة لأشاهده.. فسقطتُ".

وأشار إلى الحشائش على الأرض.. وقال: "كنتُ أظن أن هنا أعلى".. ثم أشار إلى السماء وقال: "وأن هناك أسفل".

عاد يلوح بأصابعه في الهواء، وقال: "كنتُ متأكدًا أني غادرتُ كوكبي متجهًا إلى أعلى.. حتى اصطدم رأسي بكوكبكم".

.. ثم أشار إلى القمر، وقال: "لاحظتُ أن لكوكبكم قمرًا.. فعندما تذهبون إلى القمر.. هل تسافرون إلى أعلى أم إلى أسفل؟".

قلت: "إلى أعلى". وكنتُ متأكدًا مما أقول.. فأول إنسان كان قد هبط على سطح القمر منذ أسابيعَ قليلة.

وضع ميكا إبهامه في فمه مرة أخرى.. ثم أخرجه عندما أراد أن يسأل سؤالاً جديدًا. قال: "وعندما تهبطون على سطح القمر.. ألا تهبطون إلى أسفلَ؟".

فكرتُ جيدًا قبلَ أن أجيب.. ثم أومأتُ برأسي قائلا: "بلى".

فقال: "وعندما تكونون هناك.. ألا تنظرون إلى أعلى، فترون هذا الكوكب؟"..

لم أكن قد ذهبت إلى القمر، لكني شاهدت كل برامج التلفاز عن أول هبوط للإنسان على سطح القمر.. فأجبته: "بلى".

فقال: "إذن.. لابد أن في مكان ما بين هذا الكوكب وبين القمر، يصبح الأعلى أسفل.. ويصير الأسفل أعلى".

فكرت فيما قاله، ووجدته معقولاً.. فقلت معترفًا: "نعم.. أظن ذلك".

ففكر قليلاً، ثم قال: "أظن أنني أعرف بالضبط النقطة التي يحدث عندها هذا التغيير".

.. وفجأةً، راح ميكا يقفز ويتواثب في الحديقة مثل حيوان الكَنْغَر. في البداية، كان يقفز قفزات قصيرة حذرة.. ثم راح يقفز بأقصى ما يستطيع.

ثم قال: "يبدو أن كوكبكم هذا أصغر من كوكبنا.. فجاذبيته أقل من جاذبية كوكبنا".

نظرت إليه بارتباك، فقال: "ألا تعرف الجاذبية؟.. إنها قوة غير مرئيَّة، تجذبك وتجذب الأشياء الأخرى كلَّها نحو سطح الكوكب.. فلو لم تكن هناك جاذبية.. لتساقطت الأشياء.. وتدفقتْ في الفضاء..".

ثم تابع شرحه: "على كوكبك، أستطيع أن أقفز أعلى مرتين مما أستطيع على كوكبي.. لأن الجاذبية هنا أضعف من الجاذبية هناك.. ولو ذهبتَ أنتَ معي إلى كوكبي، فلن تستطيع أن تقفز بالمرة".

شعرت بنوع من الظلْم.. فهو يستطيع أن يقفز أعلى مني، لمجرد أنه قادم من كوكب جاذبيته أقوى من جاذبية كوكبي.

لكن ذلك جعلني أفكر.. فتذكرت أن الرجُل الذي شاهدتُه يهبط على سطح القمر، كان يقفز قفزاتٍ عاليةً، لا يستطيع أن يقفزها على سطح الأرض.. بالرغم من بذلة الفضاء الثقيلة التي كان يرتديها.. فلابد أن جاذبية القمر أقلُّ من جاذبية الأرض.. وأقل كثيرا من جاذبية كوكب ميكا.

بعد أن انتهى ميكا من اختبار الجاذبية.. نزل على يديْه وقدميْه، وراح يفحص الحشائش.. فشمها أولاً.. ثم جذب عُوديْن منها ووضعهما في فمِه.. ثم لفظهما في الحال.

فقلت: "لا تأكلِ الحشائش.. فطعمها رديء".

ظل ميكا يغمغم وهو يلفظ ما في فمه، حتى تألَّمتُ لحاله.. فقد جاء إلى الأرض من كوكب بعيد جدًّا، ولابد أنه جائع..

فركضتُ إلى شجرة التفاح، والتقطت تفاحة من الأرض، وقدمتها له،: فقد شعَرت أنني أمثّل كل سكان الأرض، ولابد أن أرحب بهذا الضيف الغريب.

قلت: "كل هذه التفاحة".

نظر ميكا إلى التفاحة كأنه يراها لأول مرة، ثم تشمَّمها، ثم تذوَّق قطعة صغيرة، وقال: "إنها لذيذة".. ثم قضَم قضمة كبيرة.

فسألته: "هل أعجبك طعمها؟".. فانحنى أمامي انحناءة شديدة.

كنتُ متشوقًا إلى أن أعرف شعور الشخص عندما يتذوق تفاحة لأول مرة.

فعدتُ أسأل: "ما طعْمها؟".. فانحنى انحناءة ثانية.

فسألته: "لماذا تنحني هكذا؟".

قال: "في المكان الذي أتيت منه، عندما يسأل أحدنا سؤالاً مثيرًا.. ننحني له.. وكلما كان السؤال عميقًا، كان الانحناء شديدًا".

شعرت أن تلك أسخف فكرة سمعتها في حياتي.. ولم أدرك كيف يكون السؤال مهمًا لدرجة أن ننحني له.. كيف يستحق السؤال أن ننحني له؟!

فسألته: "وكيف تُحَيُّون بعضُكم بعضًا عندما تلتقُون؟".

قال: "نفكّر في سؤال مثير لنسأله".

قلت: "لماذا؟".. كان ذلك سؤالاً، فانحنى انحناءة سريعة، وقال: "نفكر في سؤال ذكي وعميق، لنسأله، فينحني لنا الآخر".

أعجبتني هذه الإجابة.. فانحنيتُ لها بشدة.. ولما رفعتُ رأسي، رأيت ميكا قد وضع إبهامه في فمه من جديد، كأني قد جرحت مشاعره.. ثم أخرجه وسألني: "لماذا انحنيتَ؟".

قلت: "لأنك أجبت إجابة ذكية".

قال: "لكن الإجابة لا تستحق الانحناء أبدًا.. مهما كانت صحيحة أو ذكية.. لا ينبغي الانحناء لها".

فأومأتُ برأسي موافقًا.. ثم ندمت في الحال، وخشيت أن يتصور ميكا الإيماء انحناءة لإجابته.. لكنه تابع كلامه..

قال: "انحناؤك يعني أنك تنحّيتَ لمن أمامك، ليتقدمك هو.. لذلك لا ينبغي الانحناء أبدًا لإجابة أي سؤال".

قلت: "لماذا؟".

قال: "لأن الإجابة تمثل الطريق الذى وراءك، أما السؤال، فيشير إلى الطريق الذي أمامك.. إنه يدل على الطريق القادمة".

كانت كلماته في منتهى الحكمة، فمنعت نفسي من الانحناء لها.

في تلك اللحظة، أشرقت الشمس، معلنة بداية نهار جديد..

فجذب ميكا ملابسي، وأشار إلى الأفق الأحمر، وقال: "ما اسم هذا النجم؟".

قلت: "إنها الشمس".

فبسط ميكا أصابعه، وراح يلوح بها.. وقال: "إنها نجم على أي حال.. فكل الشموس نجوم، وكل النجوم شموس.. كل ما في الأمر، أنه ليس لكل النجوم كواكب تدور حولها.. وإذا لم تكن هناك كائنات حيَّة على كوكب ما تقوم بمشاهدة نجمه، فلن يوجد من يسمي ذلك النجم شمسًا".

كان كلامه صحيحًا.. فأردتُ أن أقول أنا الآخر كلامًا صحيحا مثله..

فقلت: "لابد أن النجوم تشعُر بالوَحدة إذا لم تجد كوكبًا تشرق عليه.. ولم تجِد أحدًا ينظر إليها كما ننظر نحن إلى شمسنا عندما تشرق بنهار جديد".

قال ميكا: "تستطيع أنت أن تنظر إليها".. قلت: "أنا؟!".

قال: "طبعًا.. تستطيع أن تنظر إلى النجوم الوحيدة عندما تشرق بليل جديد.. وكلما كان الليل أشد ظلامًا.. رأيتَ في السماء شموسًا أكثر.. لأننا في النهار لا نرى إلا شمسنا فقط".

كان هذا أول لقائي بميكا..

كان يضع إبهامه في فمه عندما يفكر بعمق.. ويبسُط أصابعه، ويلوِّح بها إذا أراد أن يشرح فكرة جديدة..

.. وكلما سألتُ سؤالاً مميَّزًا .. انحنى بشدة. وعندما أجيب سؤاله.. يستمع باهتمام، ليسأل سؤالاً جديدًا ..

لم أكن أدري أنه من الممكن أن يغضب أو يتجهم.. إلا بعد المكالمة الهاتفية.



البَيت



سمعتُ رنين الهاتف، وسمعه ميكا أيضًا.. فأخذ يهز رأسه، ويحرك إصبعيه في أذنيه.. ثم صرخ بفزع: "هناك صوت مزعج في أذني".

فضحكتُ وقلت: "لا تخَف، إنه الهاتف".

لكن ذلك زاده رعبا.. فقال: "أليس من الخطر أن يأتي الهاتف في أذنيك؟".

قلت: "إنه ليس في أذنيك".. وأسرعتُ إلى بَهْو البيت.. ودخل ورائي ميكا مهرولاً.

كان أبي على الهاتف.. قال: "مرحَباً يا چو.. إننا لا نزال في المستشفَى، وأحوالنا طيبة، ولكن المولود لم يَخرج بعدُ.. يبدو أنه مازال أمامه بضعُ ساعات.. هل أنت بخير؟.. هل وصلَت الخالة هيلين؟".

قلت: "لم تصل بعد.. لكني بخير، فلا تحّمل همّا".

في تلك اللحظة، اندفع ميكا إلى المطبخ، ووقف على المقعد، وتسلق منه إلى خزانة الطعام..

قال أبي بقلق: "ما الذي أخَّرها ياتُرى؟".

فتح ميكا إحدى الضلف العلوية..

قال أبي: "هل أنت بخير حقًا ياچو؟".

عندئذ.. سقط كيس الدقيق من الخزانة..

قلتُ لأبي: "أنا بخير فعلاً".

كنتُ أراقب ميكا وهو ينثر الدقيق في المطبخ كأنه عاصفة ثلجية.. لكني لم أقل لأبي شيئًا من ذلك.. فليس من المعقول أن أخبره، في وقت كهذا، أن معي ضيفًا من الفضاء.

قال أبي: "وماذا تفعل الآن؟".

عندئذ، بدأ ميكا يعطس.. كان يعطس ويضحك مرة تلو الأخرى..

قلتُ لأبي: "لا أعمل شيئًا.. عن إذنك يا أبي.. لابد أن أذهب الآن".

وأسرعت إلى المطبخ، واحتضنتُ ميكا، ثم وضعته على الأرض، وقلت له: "ماذا تفعل؟!".

ظل ميكا ينظر إليّ ويضحك.. فقلت بحدة: "لا يجوز أن تلمس هذه الأشياء إلا بإذن".

عندئذ.. انطلق ميكا يصيح ويصرخ بصوت عال ومزعج.. حتى إنني سددت أذنيّ بأصابعي.. وتصورتُ أنه لن يتوقف أبدًا عن البكاء والصراخ.. وليس من المعقول أن أظل واضعًا أصابعي في أذنيّ حتى تحضر الخالة هيلين.. فأخذت أفكر في طريقة تجعله يكف عن البكاء.

أخرجت لساني ولوحت بأصابعي فوق رأسي.. وقمت بأشكال مضحكة بوجهي.. بلا فائدة..

فرحت أدور وأرقص في المطبخ، وأقف على قدم واحدة، وأصيح مثل الديك، وأقفز في كل الاتجاهات.. بلا فائدة.

فأخذت حفنة من الدقيق، ونثرتها في الهواء.. فقد تصورت أنه غاضب لأني منعته من اللعب بالدقيق.. لكنه لم يتوقف، وإنما زاد صياحه.. وزاد شعوري بسخافتي.

وأخيرًا، توصَّلت إلى فكرة عبقرية.. جلستُ إلى جانبه على الأرض، ورحت أدَغْدغ رقبته بأصابعي.. وفي الحال هدأ صياحه.. ثم توقف تمامًا.. فتوقفتُ أنا أيضًا عن دغدغته. لكنه كان خطأ مني، لأنه عاد إلى البكاء.. فعدت في الحال لدغدغته، وتربيت خده أيضًا..

عندئذ لاحظتُ ياكاميلا أن ملْمَس جِلده يختلف عن ملمس جلدي وجلدك.

أخيرًا هدأت الأحوال في المطبخ.. لكني تابعت تربيتَ خد ميكا وقتًا طويلاً.. كنتُ أرتاح بين الحين والحين، وأحدِّثه حديثًا رقيقًا.. ثم رُحت أطيل فترات الراحة.. حتى توقفتُ تمامًا.

كان لابد من تنظيف المطبخ. فجمَعت الدقيق المتناثر في كل مكان، قدر استطاعتي، وألقيته في الحوض. ثم جلستُ إلى جِوار ميكا وقلت له: "على كوكبنا هذا.. لا يجوز إهدار الطعام".

حاولت أن أكون رقيقًا وودودًا قدر طاقتي، حتى لا يعود للبكاء. لكنه ظل عابسًا متجهمًا.. وقال بغضب: "لكنني في حُلم.. وفي الأحلام يجوز عمل أي شيء".

ضايقتني فكرة أن كل ما يحدث لي مجرد حُلم.. فقلت له: "لا يمكن أن أكون معك في الحلم.. لأنني مستيقظ تمامًا.. كما انني أعيش هنا فعلاً".

وإلى الآن مازلتُ أذكر إجابته بدقة.. قال: "ولكني لا أعيش هنا.. فلابد أنني في حلم".

كنتُ في حَيرة شديدة من هذا الكلام.. لكنني ازددتُ حَيرة وارتباكا عندما قال: "لابد أن أسرع بالعودة إلى كوكبي قبل أن أستيقظ.. وإلا ضللتُ طريقي إلى الأبد".

ما كاد ينتهي من كلامه، حتى دق جرس الباب.. فهز ميكا رأسه، وحرك إصبعيه في أذنيه.. ثم تذكّر، فصاح: "إنه الهاتف".. فصحتُ: "إنها الخالة هيلين".

احترتُ ماذا أفعل.. فمن المستحيل أن أستقبل الخالة هيلين، وأقول لها إن معي ضيفًا من الفضاء الخارجي.. فكان الحل الوحيد هو أن أخبئ ميكا.

كنتُ بالطبع أعرف أماكن كثيرةً تصلُح للاختباء.. لكن المشكلة أن ميكا لم يكن مجرد شيء ساكن يمكن وضعه في مكان لا يتحرك منه.. إنما هو صبي صغير، سيبدأ في الصراخ

والزعيق إذا أزعجه أي شيء. وكذلك لم يكن في استطاعتي أن أدّعي أن ميكا مجرد صديق جاء لزيارتي. فقد كان، كما قلتُ لكِ ياكاميلا، لا يشبهني ولا يشبهك..

ثم دق جرس الباب مرة أخرى فكان لا بد أن نتحرك بسرعة.

أخيرًا، قلتُ له: "تعال نلعب لُعبة الاختباء".

بدا عليه أنه فهم قصدي..

أظن أنه لو كانت هناك حياة على أي كوكب آخر.. فلابد أن عليه أماكن تصلح للاختباء.. ولابد أن أحدًا من هذا الكوكب قد فكر في لعبة الاختباء..

.. وقد كنتُ أعتقد، في صغري، أن أوَّل ما يتعلَّمه الناس على أي كوكب، هو أن يلعبوا لعبة الاختباء.

أمسكتُ يد ميكا، وقُدتُه إلى غرفتي في الطابق الأعلى.. فسار معي وهو يحدِّق في كل ما حوله باندهاش. وقلت له: "اختبئْ هنا، ولا تُصْدرْ أي صوت".

دق الجرس للمرة الثالثة. فنزلت مسرعًا، وفتحتُ باب البيت.. فبدتْ لي الخالة هيلين مندهشة ومرتاعة.. كأنها سقطت حالاً من فوق سطح القمر.. وظننتُ للحظة أن ميكا واقف ورائي في البهو.

قالت خالتي: "آسفة جدًا ياجو.. كان المفروض أن أصِل منذُ

ساعات، لكن سيارتي تعطلتْ.. لماذا لم تفتح الباب في الحال؟.. هل أنت بخير يا چو؟.. ما هذه الفوضى؟".

لم تكن غاضبة، لكنها سألتني ثلاثة أسئلة.. فانحنيت لها ثلاث انحناءات.

فقالت: "لماذا تنحني هكذا؟".

فانحنيت انحناءة سريعة وقلت: "في هذا البيت.. نحن ننحني كلما سألنا أحدٌ سؤالاً مثيرًا".

نحَّتني الخالة هيلين، ودخلت المَطبخ.. فلما شاهدت الفوضى سألت سؤالاً آخر.. قالت: "ماذا كنتَ تفعل يا چو؟!".

فتذكرت الدقيق، ولم أدْر ما أقول.. ثم تذكرت أننا نصنع، عادة، الفطائر المسطَّحة في المناسبات السعيدة.. ومولْدُ أخ صغير يُعَدُّ بلا شك مناسبة سعيدة..

فقلت: "أريد أن آكُل فطائر مسطحة".

فاحتضنتْني وقالت: "تصوَّرْ يا چو.. سوف يصبح لك أخت أو أخ صغير".

قلت بثقة: "أخ صغير".

أخذتني خالتي إلى الحمّام، ونظفت ملابسي بالفرشاة.. ووعدتْني أن تُعِد الفطائر لغدائي.. فشعرت أن لميكا الفضل في هذا الغداء الشهي..

لم أكن قد افطرتُ.. لكنني خشيتُ أن أبقى في المطبخ لآكل، فتصعد خالتي إلى غرفتي.. فلمْ أخبرْها أنني لم أفطر.

جلست الخالة هيلين في غرفة الجلوس.. فانطلقتُ صاعدًا السلَّم وأنا أقول: "سألعب قليلاً بمكعباتي".

وجدتُ ميكا لم يفكر في الاختباء أصلاً.. وإنما جلس على سريري يتأمل كتابًا مصوَّرًا عن الديناصورات، ممسكًا عدسة مكبِّرة. ولم يرفع رأسه عندما دخلت.. وإنما سألني: "هل هناك الكثير من هذه الحيوانات على هذا الكوكب؟".

قلت: "صحّ".. ثم جلست إلى جواره على السرير وقلت: "هذه ديناصورات.. إنها حيوانات عملاقة، كانت تعيش على الأرض منذ ملايين السنين.. لكنها انقرضت الآن.. ماتت كلها".

اتسعت عينا ميكا من الدهشة، وقال: "دون أن تتطور؟!".

فأومأت برأسي، فعاد يقول: "دون أن تتاح لها الفرصة لتتطور وتصبح بشرًا؟!".

في ذلك الوقت، كنتُ قد تعلمت بعض المعلومات عن تاريخ الأرض.. لكن هذا السؤال كان غريبًا حقًا.. فاحترتُ بماذا أجيبه..

قلت: "في ذلك الوقت، لم يكن هناك بشر".

فقال: "إذن.. من أين أتيتم أنتم؟!".

نسيتُ أن أنحني لهذا السؤال.. لذلك، لم ينتظر ميكا مني إجابة.. وإنما راح يشير إلى الحروف التي في الكتاب، ويقول: ما كل هذه الصور الصغيرة؟!.. إنها صغيرة جدًا، لدرجة ترهق عيني عندما أنظر إليها".

لم يغب عن بالي أن الخالة هيلين كانت تجلس في حجرة الجلوس، متصورة أني ألعب بمكعباتي..

فقلت: "صَهْ.. إنها أحرُف".

قال: "ولكن، ما فائدتها؟.. فيم تستعملونها؟".

من الصعب أن تشرحي فيم تستعمل الحروف لشخص لا يعرف القراءة..

قلت: إنها ثمانية وعشرون حرفًا مختلفًا.."

فقاطعني: "ليست كلها مختلفة.. فبعضها متشابه.. تقصد أنها نوع من الرسوم.. أليس كذلك؟".

قلت: "إننا نسميها حروفًا.. ونجمعها معًا، فنُكَوّن بها الكلمات.. ثم ننظر إليها، ونسمّي ذلك قراءة".

نظر ميكا إليّ باندهاش.. فأكملتُ: "والكلمات التي في هذا الكتاب كلها عن الديناصورات".

رفع ميكا الكتاب، وقربه من وجهه لينظر إلى الحروف عن قُرب، ثم نظر إليها من خلال العدسة المكبِّرة.. ثم أسقط الكتاب في حجِره، وقال: "لا فائدة.. لا أفهم شيئًا".

فسألته: "أتحب أن أقرأ لك؟".

فوضع الكتاب في حجري.. ورحت أقرأ له قصة الديناصورات من بدايتها.. وأتتبع الكلمات بسبابتي.

قلت: "الديناصورات هي أكبر الحيوانات التي عاشت على

وجه الأرض. لكن الإنسان لم ير أيًا منها.. لأن آخر الديناصورات مات منذ 65 مليون سنة.. قبل أن يوجد الإنسان على الأرض بزمن بعيد..

"اكتشف العلماء أشكال الديناصورات، وأنها كانت تفقس من البيض، لأنهم عثروا على أحفورات من عظامها وأسنانها ومخلّفاتها وبيضها مدفونًا في الصخور.. وبعد أن انقرضت الديناصورات، أصبحت الثَّدْييَّات أهم أنواع المخلوقات.."

قاطعني ميكا: "ما الثدييات؟".

قلت: "هي الحيوانات التي تَلِد صغارها أحياء: مثل القطط والبقر والأفيال والحيتان.."

فقاطعني ثانية: "ولكن، كل الصغار يولَدون أحياء".

كنتُ على وشك أن أشرح له أن هناك فرْقًا آخَر: وهو أن الثدييات ترضع صغارها من حليبها.. لكني سمعتُ الخالة هيلين تقول: "أتحب أن تُفْطر يا جو؟".

قلت بسرعة: "كلا.. شكرًا".. وإن كنت غير صادق في ذلك..

ثم سمعت خطواتها صاعدة السلم.. فصحتُ: "إنني قادم"..

واندفعتُ نحو السلم بسرعة شديدة فاصطدمت بها.. فقالت لي: "مالك ياجو؟!".

قلت: "لا شيء.. سأخرج لألعب في الحديقة".

لو أن خالتي مدَّت رأسها داخل الغرفة، لتلقت أكبر صدمة

في حياتها .. لكن، من حسن حظي أنها تراجعتْ.. ونزلتْ خلفي إلى الطابق الأرضي.

كنتُ أفكر في طريقة أُخرِج بها ميكا من البيت.. وفي طريقي إلى باب الحديقة، وجدتُ المكنسة الكهربائية في حجرة الجلوس، فسألت خالتي: "هل ستكنسين؟".

قالت: "نعم.. فالدقيق منتشر في كل مكان".

قلت: "آسف ياخالتي على إزعاجك.. من الأفضل ألا أزيد من إزعاجك وأنتِ تعملين".

فهزّت رأسها متعجبة من حالي.. ثم أدارت المكنسة.

أسرعت إلى غرفتي.. فوجدت ميكا مسمَّرًا في مكانه على السرير كالتمثال، يسد أذنيه بيديه..

قلت: "إنها المكنسة الكهربائية: نستعملها في تنظيف الأرض.. هيا بنا نتسلل إلى الخارج".

أمسكتُ بيده، ونزلنا السلم..

كان شعورًا جميلاً أن أمسك بيدي يدا صغيرة رقيقة..

عندما وصلنا البهو.. كانت خالتي قد انتقلتْ لتنظيف المطبخ.. ومن حسن الحظ أنها كانت تقف وظهْرها لنا، فلم تشاهدنا.

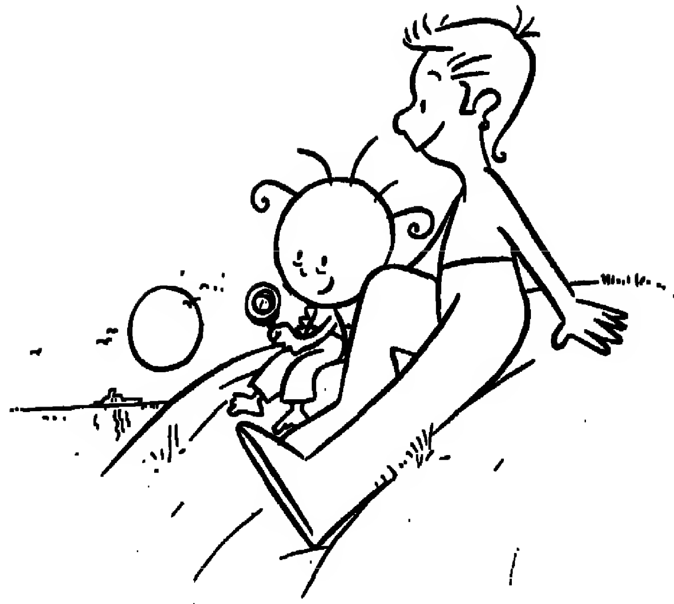
ألقى ميكا عليها نظرة سريعة، وبدا أنه ليس في شوق للتعرف عليها.. ثم اتجهنا إلى الباب.

وصلنا الحديقة.. فعاد ميكا إلى القفز مثل الكَنْغَر.. كان يصيح ويتواثب فرحًا، كأنه كان راقدا منذ مئات السنين.. ثم استيقظ الآن..

أما أنا.. فكنت مشغولاً بخاطر واحد فقط.. أننا لا يمكن أن نبقى في الحديقة.. فللبيت نوافذ كثيرة تُطِلُّ عليها.. ولكنى كنت قد فكرت في خطة....



البَحر



ركضتُ إلى شجيرة العنب البري في آخر الحديقة، حيث يبدأ الممر الذي ينتهي عند البحر.. نظرت خلفي، فرأيت ميكا يجري ورائي بشكل متعرج، ويقفز ويتقلب في الهواء.. المهم أنه كان يسير ورائي.

وقف ميكا على أطراف قدميه، وتشمم إحدى شجيرات العنب.. وكانت معه العدسة المكبرة، فرفعها إلى وجهه.. ثم ضحك وتهلل عندما رآها قد ضخمت حجم العنب الأحمر. حالما اختفينا وراء الشجيرات وقلت له: "هل تسمع شيئًا؟". فوقف يستمع للحظات، ثم قال: "إنه صوت رشرشة ماء". فقلت بزهو: "إنه صوت البحر".

نزلنا الممر، حتى وصلنا إلى صخرة ملساءَ فوق المنحدر، ترتفع قليلاً عن الخليج الذي نربُط فيه قاربنا.. كانت هذه أبعدَ نقطة مسموح لي بالوصول إليها وحدي.. فجلستُ على الصخرة الملساء التي كانت أمي تسميها المقعد الحجري.. وجلس ميكا إلى جانبي.

كانت الشمس قد ارتفعت في السماء، وانعكست أشعتها على سطح الماء.. فراح ميكا يفرك عينيْه بيديْه.. كما لو كان غير معتاد على هذه الشمس الساطعة..

وفجأة، رفع العدسة المكبرة باتجاه الشمس ليفحصها عن قرب.. لكني أنقذته في اللحظة المناسبة..

وقلت له: "احترسْ.. إياك أن تفعل ذلك أبدًا"..

وفي الحال، راح يبكي ويصرخ من جديد، حتى خفت أن تسمعه الخالة هيلين.. لكني كنت قد تعلمت كيف أواجه هذا الموقف.. فرحت أدغدغ رقبته بأصابعي.. وأقول له: "بس.. بس..". فتوقف عن الصراخ في الحال.

كنت لا أزال أذكُر، أنني وأبي، قد أشعلنا النار ذات مرة، باستعمال عدسة منظار مكبر قديم فشرحت لميكا أن العدسة المكبرة تجمع أشعة الشمس في نقطة واحدة حتى إنه من الممكن إشعال النار في قطعة ورق باستعمال العدسة المكبرة.

كان ميكا لا يزال يبكي بصوت ضعيف.. أظن أنه كان يريدني أن أستمر في دغدغته.

قال: "احْكِ لي عن البحر.. هل فيه حيوانات؟".

قلت: "فيه حيوانات كثيرة".

قال: "هل فيه ديناصورات؟".

هززت رأسي بالنفي.. ثم رحت أحكي له عن البحر..

كنت أحب دراسة التاريخ الطبيعي.. وكان عندي كُتب عن الديناصورات، عرفت منها بعض المعلومات عن تاريخ الحياة على الأرض، وكنت أتحدث مع أبي كثيرًا عن هذه العلوم.. والآن، جاء دوْري لأحكي لميكا ما تعلَّمتُه..

قلت: "الحياة على هذا الكوكب بدأت في البحر".

قال: حتى الإنسان؟".

انحنيت بشدة لهذا السؤال.. وقلت: "الناس على الأرض تعتقد أن الحياة على هذا الكوكب بدأت منذ ثلاثة آلاف مليون سنة.. وهذا يعني أن كل النباتات والحيوانات على هذا الكوكب يرتبط بعضها ببعض بطريقة ما".

قال ميكا: "احك لي عن الديناصورات.. ما قصتها؟".

قلت: "إنها قصة طويلة".. ورحت ألخصها له..

قلت: "أول الكائنات الحية كانت تعيش في البحر.... كانت حيوانات صغيرةً جدًا لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة.. ولملايين السنين، كانت تلك الحيوانات هي الكائنات الحية الوحيدة، ثم بدأت تتغير وتتطور.. كانت التغيرات ضئيلة.. لكن، بمرور الوقت، أصبح الفرق واضحًا.. فألف مليون سنة.. أي ألف ألف ألف سنة، مدة طويلة جدًا، تكفي لإحداث فرق كبير..

"أول حيوانات ظهرت بعد هذا التطور كانت قناديل البحر والديدان المفلطحة.. التي كانت أجسامها رخوة، وبلغت حجمًا يمكن به إمساكها بالأيدي..

"وبعد ملايين أخرى من السنين، ظهرت في البحر الحيوانات القشرية، التي تغطي أجسامها قشرة صلبة.. مثل الجمبري وسرطانات البحر.

كنتُ على يقين أن ميكا لم ير في حياته جمبريًا واحدًا أو سرطان بحرٍ.. لكني تابعت حكايتي..

قلت: "وبعد حوالي مائة مليون سنة أخرى.. امتلأت المحيطات بأسراب الأسماك.. التي تطور بعضها بعد ذلك إلى برمائيات.. أي حيوانات يمكنها التنفس في الهواء والماء معًا".

كنت أعرف أنني أستعمل مصطلحات صعبة جدًا.. لكني كنت قد تعلمتها حديثًا، وأحببت أن أرددها لأتمرن عليها.

قال ميكا: "هل هناك برمائيات الآن؟".

لم أتذكر حينئذ إلا الضفادع والعظايا: (السحالي).. لكني قلت له أن "الكثير من الكائنات الحية التي كانت موجودة في الأزمان السحيقة مازالت تعيش على الأرض إلى الآن".

قال ميكا بتصميم: "ماعدا الديناصورات"..

قلت: "الديناصورات ظهرتْ بعد ذلك: في زمن متأخر.. ثم انقرضتْ هي كلُّها.. ولم يبق منها أي نوع".

قال: "ثم ماذا حدث بعد ذلك؟".

قلت: "خرجت البرمائيات من البحر، وعاشتْ في المستنقعات.. وانتشرتْ على وجه الأرض.. ثم مرت ملايين أخرى من السنين، فتطورت بعض البرمائيات، وتحولت إلى زواحف.. والديناصورات نوع من الزواحف.. ومع أنه لم يعد هناك ديناصورات على وجه الأرض.. إلا أنه مازال هناك

أنواع أخـرى كثيرة من الزواحف.. بعضها يشبه الديناصورات إلى حد ما".

لم يكتف ميكا بهذا القدْر من المعلومات.. فقال: "وأنت.. من أي نوع من الحيوانات تطورْتَ؟".

قلت: "إنني من الثدْيِيَّات.. مثل كل البشر".

ثم تابعت شرحي.. قلت: "الثدييات تطورت من الزواحف.. في البدء، ظهرت أنواع صغيرة الحجم، لها أعين كبيرة وذكاء حاد، وأجسامها مغطاة بالشَّعْر.. والآن يوجد منها مئات الأنواع.. مثل الخفاش والحصان والذئب وفرس النهر.. كل هذه الأنواع لا تبيض، وإنما تضع صغارًا أحياء".

ومع أني قد حدثت ميكا عن هذا الموضوع من قبل.. إلا أنه كان لا يزال حائرًا مرتبكًا..

قال: "ألا تبيض هذه الثدييات بيضة واحدة، أو اثنتين على الأقل.. قبل أن تصبح صغارها أحياء؟".

ضحكت مرة أخرى.. فقد كان ميكا يجهل الكثير عن الحياة فوق هذا الكوكب.. لكن سؤاله كان صحيحًا إلى حد ما.. لأن أنثى الثدييات تنتج بيضة فعلاً.. لكنها صغيرة جدًا، لذلك تسمى بُوَيْضَة، وليس لها قشرة صُلبة.. وهذه البويضة يتكون منها الجنين في بطن أمه.. وينمو في الداخل حتى يتشكل تمامًا، ويكتمل نموُّه، ويصبح مستعدًا للخروج إلى هذا العالَم.

لم أشرح لميكا هذا الجزء بالتفصيل.. لأنني أنا نفسي لم أكن أفهمه بدقة..

ظل ميكا إلى جواري، يحدق في البحر الذي خرجت منه كل المخلوقات، وجميع أنواع الحياة..

ثم قال: "إن البيضة معجزة حقًا".

كان كلامه في منتهى الحكمة، لكني لم أعرف سر اهتمامه الشديد بالبيض والديناصورات.

كنت أحكي لميكا عن البحر، وكيف بدأت فيه الحياة، وأنا أدغدغه في رقبته.. ويبدو أنه كان مستمتعًا بذلك.. لأنه، بمجرد أن توقفت، قفز عن الصخرة.. وركض نحو الماء..

لم يكن مسموحًا لي بالذهاب إلى هناك.. لكني لم أكن متأكدًا أن ميكا يستطيع السباحة.. ولا يمكنني أن أعرِّضه للغرق. فقفزت عن المقعد الحجري، وركضت وراءه.

وأنا في طريقي إلى البحر، تذكَّرت أن ميكا عرف رشرشة المياه.. إذن، فهو يعرف البحر..

فسألته: "هل هناك مياه على كوكبكم؟".

انحنى ميكا بشدة، ثم أدخل يده في الماء، وانتزع حزمة أعشاب بحرية، ولوح بها في الهواء.. فرشرش علينا ماء باردًا..

وقال: "إذا كان هناك حياة بلا ماء على كوكب من الكواكب، فلابد أنها تختلف تمامًا عن الحياة على كوكبنا أو كوكبكم".

عندئذ، شعرت أنني لا بد أن انتهز فرصة لقائي هذا بشخص من كوكب آخر وأسأله عما أريد معرفته.

فميكا يعرف الكثير عن الفضاء الخارجي.. لكنه لا يعرف شيئًا عن الحياة على هذا الكوكب.. فهو لم يعش فيه إلا ساعات قليلة. فسألته: "هل تعتقد أن هناك ماءً على كواكبَ أخرى كثيرة؟".

انحنى ميكا لسؤالي.. ثم هز رأسه بالنفي.. وقال:

"كلا.. فالكواكب التي عليها ماء، لا يمكن أن تكون قريبة جدًّا من الشمس، وإلا تبخَّرتْ مياهها.. ولا يمكن تكون بعيدة جدًّا، وإلا تحوَّل الماء إلى جليد".

قال ذلك وهو يجري على المرسَى الخشبي الممتد على الخليج.. ثم قفز منه إلى القارب.. فراح القارب يهتزُّ ويتأرجح.. فخفت أن يقع ميكا في الماء، فقلت:

"توقفْ.. لا يمكن أن تقفز أو تتحرك بعنف فوق القارب".

ثم خفت أن يبدأ في الصياح والعويل لأنني منعته من عمل ما يريد، فقلت بسرعة: "أتحب أن أعلمك التجديف؟".. مع علمي أن ذلك كان أمرًا ممنوعًا عليّ.

لم أكن أجيد التجديف.. لكني استطعت أن أعلِّم ميكا كيف يُمسك المِجداف.. ورحت أجدِّف بالمجداف الآخر.. كانت هذه هي الطريقة التي علَّمني بها أبي.. ولما خرجنا من الخليج، سحبنا المجدافين، وتركنا القارب ينساب على الماء.

كان في قاع القارب خيط شِصّ (سنّارة).. فانحنى ميكا ليمسكه.. وقبل أن أحذّره، كان طرف الشّص قد شكه.. فصرخ من شدة الألم..

من حسن حظه أنه شكه فقط، ولم ينغرس في إصبعه.. ورأيت نقطة دم تخرج من إصبعه..

لم تكن حمراء اللون مثل دمائنا، وإنما كانت زرقاء داكنة، تميل إلى السواد.. فهو كائن قادم من الفضاء.. لم يتطور من السمك الذي في البحار.. أو على الأقل، فهو لم يتطور من السمك الذي في بحارنا.. فالسمك عندنا له دم أحمر اللون هو الآخَر..

ربما لم يكن ميكا حيوانًا ثدييًا أصلاً.. ولكن، إذا لم يكن حيوانًا ثدييًا.. فماذا يكون إذن؟!

لم يتِح ميكا ليَّ الفرصة لأفكّر في هذا الأمر.. فقد بدأ الصراخَ والعويل في الحال.. فرحت أدغدغ رقبته، وأقول له: بس.. بس.." فهدأ فورًا.

انتهزت الفرصة لأشرح لميكا فيم يستعمَل الشّص.. وقبل أن أنتهي من شرحي، كان قد ألقَى الشص في الماء.كنت أخرُج كثيرًا للصيد مع أبي، وكثيرًا ما آكَل السمك الطُّعم من شِصّي.. لكني لم أتمكن من الصيد إلا مرة واحدة.. لذلك شَعرت بالظلم عندما تمكن ميكا من الصيد في أول محاولة له.

فقد رأيت خيط الشص ينجذب بشدة في الماء..

فهمست: "السمكة تأكل الطُّعم.. اسحب الخيط بسرعة".

بعد لحظات، كانت سمكة الماكريل تتخبط في قاع القارب، وكان ميكا يضحك ويبكي وفي وقت واحد.. كأنه لم ير سمكة حية من قبل.. ولم يجرؤ على الاقتراب منها.. فعلّمته كيف يُمسك بها، ويخلّصها من الشص، ويقطع رأسها.. ثم وضعناها في دلو السمك.

وقلت: "سأطلب من الخالة هيلين أن تطبخها لنا، لنأكلها مع الفطائر المسطحة".

قال ميكا: "ما الفطائر المسطحة؟".

قلت: "إنه نوع من الفطائر، سوف تُعدّه الخالة هيلين بهذه المناسبة السعيدة".

.. ووعدته أن أحتفظ له بواحدة أو اثنتين منها.

أردتُ أن أعرف إن كان قد سبق لميكا أن صاد سمكًا، أم أن سمكة الماكريل هذه كانت أول ضربة حظ.

فقلت: "هل هناك سمك كثير في بحار كوكبكم؟".

هز ميكا رأسه بالنفي.. وبدا كأنه يهُم بالبكاء.. فقلتُ مهوّنًا: "لابد أن هناك أنواعًا أخرى من الحيوانات.. هل تصيدونها؟".

فهز رأسه بالنفي مرة أخرى..

وقال: "كان هناك حيوانات ونباتات كثيرة في بحار كوكبنا. لكنّ مياهها تلوثتْ، فماتتْ كل الكائنات التي كانت تعيش فيها".

كان خبرًا مفزعًا ومؤلمًا.. فكدت أبكي أنا أيضًا.. فاقترحت، محاولاً إخفاء مشاعري، أن نعود للتجديف.

وصلنا المرسى.. وعلمتُ ميكا كيف يربُط القارب.

وفي طريق عودتنا، حملت دلو السمك، وداخله سمكة الماكريل.. وحمل ميكا العدسة المكبرة، التي كان قد تركها على المقعد الحجري، وراح يتفحص كل ما يراه.. وحاول أن يتفحص ذبابة خضراء تطير حول شجيرات الورد.. لكنها لم تقف ساكنة أبدًا.. كأنها لا تريد أن يتطفل عليها أحد..

فصاح ميكا: "إنها أصغر من الحروف.. أليس عجيبًا أن كائنًا بهذا الصغر، يكون حيًا بهذه الدرجة؟!".

لم أجب عن سؤاله. لكني انحنيت له انحناءة شديدة.. لأني كنت أعتقد ذلك فعلاً..

بعد قليل، رأى عَظاءة (سِحلية) تدب على حجر قريب.. فتراجع إلى الوراء..

وقال: "ما هذا؟".

قلت: "إنها عَظاءة... نوع من الزواحف".

قال: "مثل الديناصور؟".

قلت: "نعم.. وهناك زواحف أخرى أكبر منها، مثل التمساح، وجلدها له حراشف مثل الديناصورات.. لكنها أصغر منها حجمًا. وكلها من ذوات الدم البارد.. أي أنها لا تتحكم في درجة

حرارة أجسامها، فأجسامها تكُون باردة أو دافئة حسب درجة حرارة الجو المحيط بها.. لذلك تراها تستدفئ في الشمس لتكتسب طاقة تساعدها على الحركة".

اتسعتْ عينا ميكا من الدهشة..

وقال: "هل تستطيع هذه الزواحفُ أن تتكلم؟".

فضحكت وقلت: "كلا.. إنها لم تبلغ هذه الدرجة من التطور.. فالإنسان فقط يستطيع الكلام".

في تلك اللحظة، رأينا قطة سوداء تجري نحونا على الممر.. فانحنيتُ الاطفها، وأربِّت فراءَها الناعم. فراحت القطة تموء.. ثم تَهِرّ.

فقال ميكا: "لا أفهم كلمة مما تقول".

قلت: "لأن القطط لا تتكلم".

قال: "لكني سمعتها تقول:مياو.. مياو.. ثم صدر منها ذلك الصوت:..".. وحاول أن يهر مثل القطة.

ثم قال: "أليس ذلك كلامًا؟!.. وإذا كانت لا تتكلم.. هل يعني هذا أنها لا تفكر؟".

لم أكن أعرف إجابة لهذا السؤال.. كنت أعرف أن الحيوانات، مثل البقر والقطط لا تفكر كما نفكر نحن.. وأعرف أن بعض الحيوانات يمكنها أن تتعلم بعض المهارات.. لكني كنت متأكدًا أن القطط لا تعرف أنها تعيش على كوكب يدور حول نجم في ذلك الفضاء المتسع.

قال ميكا: "هل القطط من الزواحف؟".

قلت: "لا.. القطط ليست من الزواحف، وليست من البرمائيات.. إنها من الثدييات".

فقال مستنتجًا: "إذن، هي لا تبيض".

ورفع العدسة في وجه القطة ليفحص أنفها..

وقال: "لابد أنها ماهرة جدا في تشمم الأشياء".

عندئذ، ابتعدت القطة.. واقترينا من البيت.. فرحتُ أفكر، كيف أبقي ميكا بعيدا عن نظر الخالة هيلين.

وأخيرًا، قلت: "أتحب أن تنتظرني في السقيفة؟.. وتفحَص الحيوانات الصغيرة هناك بالعدسة المكبرة؟.. وسآتي لرؤيتك كلما كان الطريق آمنًا".

دخلت البيت، ممسكًا بدلو السمك.. فوجدت خالتي أمامي، ولم أكن قد فكَّرت في تفسير لوجود سمكة الماكريل معي.

بدت خالتي مفزوعة من السمكة.. كأنها وحش خطير..

قالت: "ماذا تحمل معك؟".

قلت بافتخار: "إنها سمكة ماكريل.. والسمكة حيوان لا يعيش إلا في الماء. وهي من الفقاريات.. أي من الحيوانات التي لها عمود فقري.. وليس لها رئة تتنفس بها مثلما نتنفس نحن.. وإنما تستخرج الأكسوجين من الماء بواسطة شقوق طولية ذات أهداب تسمى الخياشيم.. ومع ذلك، فنحن نتصل بها: لأننا

تطورنا من الزواحف، والزواحف تطورت من البرمائيات، والبرمائيات تطورت من سلالة الأسماك التي في البحار".

ابتسمت خالتي، وربتت رأسي.. وقالت: "أعرف أنك عالم طبيعيات بالفطرة.. ولكن، هلاّ أخبرتني من أين أتت هذه السمكة بالذات؟".

هذا السؤال بالذات.. لم أكن قد جهزت له إجابة.. لذلك شرحت لها كل هذه المعلومات السابقة.

وبعد تفكير، قلت: "صادها شخص ما".

كانت هذه الإجابة صادقة ودقيقة.. ومن العجيب أن خالتي لم تسألني سؤالاً آخَر، وإنما أخذت الدلو، وفيه السمكة، ووضعته في المطبخ.

عندئذ، شعرتُ أني أثقلت عليها بتنظيف السمكة، بعد كل ما بذلتّه من مجهود في تنظيف المطبخ من الدقيق.

اتصل أبي مرتين في أثناء تناولنا الطعام، وقال إن المولود لم يصلِ بعدُ، وإن أمي بخير، وإنها ترسل لي أشواقها.

وفي أثناء الطعام، ذهبت إلى الحمام مرتيْن.. وفي كل مرة، كنت آخذ معي نصف فطيرة، وأخفيها في حذائي المطاطي ذي الرقبة الموجود في البهو.

بعد الطعام، قالت خالتي: "ماذا ستفعل الآن؟.. أتحب الذهاب إلى شاطئ البحر؟".

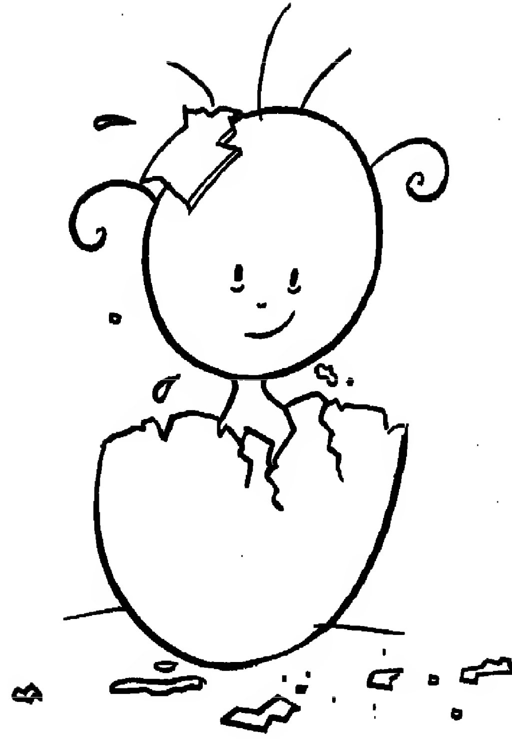
قلت بسرعة: "كلا.. شكرًا.. فعندي أشغال كثيرة".

قالت: "إذن.. سأجلس في الحديقة قليلاً.. ثم أطهو بعض الطعام، لأخفف بعض الأعباء عن والدتك عندما تعود من المستشفى بالمولود الصغير".

وقفت خالتي تغسل الأطباق.. وأسرعت أنا إلى السقيفة لأرى ميكا.. لكني لم أجده هناك..



البَيضة



ركضتُ حول البيت، أبحث عن ميكا.. فوجدته جالسًا في ساحة الدجاج، وقد أمسك بيده بيضة..

صاح بي: "انظر: لقد باضت الدجاجة".. كأن ذلك أمر خارق للعادة ومثير.

.. في ذلك الوقت، كنا نربي بعض الدجاج، لنتسلّى به.. وكان يمدُّنا ببيض يكفي لإفطارنا، ولعمل الفطائر.

قلت محذرًا: "انتبهْ"..

فأومأ برأسه بوقار، وقال: "لا تخف.. إنني حذر.. فربما خرج منها حيوان صغير".

قلت: "اسمه فرخ.. أي طائر صغير.. فالطيور تطورت من الزواحف منذ ملايين السنين.. تمامًا مثلما تطورت الثدييات".

أشار ميكا إلى الدجاج وسألني: "كم بيضةً تبيض هذه الدجاجات؟".

انحنيت بشدة لهذا السؤال.. وقلت: "هناك أنواع تبيض كل يوم.. تقريبًا.. أما أغلب الطيور البرية والزواحف، فلا تبيض إلا بيضة واحدة في السنة".

بدت الدهشة الشديدة على وجه ميكا.. فلم أتمالك نفسي من الضحك..

وتابعت حديثي: "استأنس الإنسان الدجاج منذ آلاف السنين.. وكان يتخيَّر الأنواع التي تبيض أكثر من غيرها.. تمامًا كما نتخير الآن الأبقار التي تعطي حليبًا أكثر، والأغنام التي تنتج صوفًا أكثر، والخيول الأقوى والأسرع.. ونُسمِّي كل هذه الأنواع حيوانات أليفة، أو داجنة".

وضع ميكا البيضة على الأرض بحرص شديد، وخرج مسرعًا من السياج السلكي..

رأيتُ الخالة هيلين قادمة إلى الحديقة، تحمل مقعدًا مطويًا.. فتسللت أنا وميكا إلى البيت، ثم إلى المطبخ.. وهناك..

رأى ميكا قشر البيض الذي تركته خالتي في الصحن بعد أن طهَت الفطائر.. ففزع من منظره.. حتى إنه غطى عينيه بيديه.

ومع ذلك، جلس إلى المائدة، وأكل قطع الفطائر التي كنت قد خبَّأتها له.. ولطَّخ وجهه وملابسه بالمربَّى.. وأصبح في حالة يُرثَى لها.

فلما انتهى من طعامه، أخذتُه إلى الحمَّام، ووضعت له مقعدًا داخل حوض الاستحمام.

.. حينئذ فقط، لاحظت أمرًا غريبًا.. لم ألاحظه إلا في ذلك الحين.. لذلك لم أحدِّثك عنه من قبل.

لاحظت أن ميكا ليس له سُرة.. تصوري ياكاميلا! لك أن تتصوري مقدار فزعي عندئذ..

فكل إنسان له سُرة في وسط بطنه: لأنه عندما كان جنينًا في بطن أمه، كان يتغذى بواسطة أنبوب يتصل بسرته.. يُسمى الحبل السُّرِّي.

لكن ميكا ليس له سرة.. فكيف وُلِدَ إذن؟!

ارتبكتُ بشدة، ولم أدر ماذا أفعل، أو كيف أفكر.. فأسرعت وجفَّفت ميكا بمنشفة، وأنزلته على الأرض.. فانطلق يجري إلى الطابق العلوي.. ودخل غرفة أخي الصغير.. وأشار إلى المهد.. ثم تسلَّقه، ورقد فيه، وراح يتأرجح به.. كأنه يحاول أن يكتشف فيم يُستعمل.. ثم أخذ يضحك بسعادة.

قلت: "هذا مهد.. أي سرير، سينام فيه أخي الصغير".

رد ميكا: "إنه مريح جدًا".. ثم بدا عليه الضيق.. وقال: "لابد لي من أن أعود إلى كوكبي بسرعة.. قبل أن أستيقظ"..

ثم تلفَّت حوله، وقال: "أين البيضة إذن؟".

في تلك اللحظة، خطر ببالي خاطر مفاجئ..

هل أثرتُ فضولكِ ياكاميلا؟..

نزلت مع ميكا إلى حجرة الجلوس بالطابق الأرضي.. وكان على الرف، أسفل الطاولة، ألبوم للصور.. فوضعتُه فوق الطاولة، وجلست على الأريكة، وأجلست ميكا إلى جانبي.

وقلت: "هذا ألبوم.. أي دفتر للصور".

حدّق ميكا في وجهي في دهشة.. كان من الواضح أنه لم يسمع في حياته عن ألبوم للصور.

فقلت: "انتظر قليلاً من فضلك".. واندفعتُ إلى غرفتي، وأحضرتُ آلة التصوير، وتأكدت أن مصباحها يعمل.. ونزلت بسرعة، والتقطت صورة لميكا.. وحرصت أن يظهر بطنه فيها.. ليتأكد كل من يراها أنه ليس له سرة..

التقطت الصورة بالتأكيد.. لا يمكن أن أنسى صوت انغلاق العدسة.. فلو اختفى ميكا بعد ذلك.. فسيكون عندي إثبات أكيد أنني التقيتُ به فعلاً.

فزع ميكا من وهج المصباح.. فرحت أدغدغ رقبته قبل أن يبدأ في البكاء.. ثم فتحت ألبوم الصور..

وقلت: "هذا دفتر صور عائلتي.. سوف أضع صورتك مع صورنا يا ميكا".

ورحت أقلب الألبوم، وأريه صور أبي وأمي في صغرهما.. وصورة أمي وبطنها منتفخ، قبل أن أولد مباشرة..

وقلت: "هذه صورتي وأنا في بطن أمي.. قبل أن أخرج إلى الحياة مباشَرة".

بدا على ميكا أنه فهم الأمر أخيرًا.. لأنه غمغم قائلاً: "مولود حي".

قلبت ألبوم الصور، حتى وصلت لصورة التقطها أبي لأمي وهي ترْضِعني..

وقلت: "هذه صورتـي عندمـا كنتُ جائعًا.. أرضـع حليبًا من أمي".

اتسعت عينا ميكا وهو يردد: "حليب!!".

فضحكت.. لأن ميكا لم يفهم معنى كلمة ثدييات.. فلابد أنه لا يعرف ما هو الحليب.

قلت: "إنه غذاء الأطفال المولودين حديثًا".

فقام ميكا مبتعدًا عن الألبوم.. كأن صورتي وأنا أرضع الحليب قد أثارت تقززه..

ثم قال: "كيف نكون، أنا وأنت، متشابهين إلى هذا الحد؟.. بينما أنت حيوان ثديي، وأنا لستُ كذلك؟!"..

هذا نفس ما كنت أفكر فيه أنا أيضًا في تلك اللحظة.. فشعرت كأن ميكا قد قرأ أفكاري.. حتى إنني لم أحاول الانحناء لهذا السؤال.

كيف لم يخطر ببالي هذا الأمر من قبل؟! فقد أتى ميكا من كوكب بعيد جدًا.. كوكب تاريخه يختلف تمامًا عن تاريخ الأرض.. فكيف نكون، أنا وهو،متشابهين إلى هذا الحد؟!

ظل ذلك لغزًا بالنسبة لي، حتى حله ميكا.. وسوف أكشفه لك حالاً ياكاميلا.

في تلك اللحظة، سمعت الخالة هيلين قادمة من الحديقة وهي تقول: "أين أنت يا جو؟.. لماذا لا تخرج لتلعب في الحديقة حتى يأتي المولود الجديد؟!".

نظرت من باب حجرة الجلوس، فوجدتُها في البهو.. فقلت: "إنني خارج الآن".

قالت: "وسأبدأ أنا في إعداد الطعام".

دخلت خالتي المطبخ.. فأخذت يد ميكا، وتسللنا من الباب الأمامي إلى الحديقة.

تسلقنا تلة صغيرة أمام البيت، كان أبي وأمي يسميانها الرَّبْوة.. وجلسنا عند كومة من الحجارة، كنت، أنا وأبي قد صففْناها.. ومن مكاننا هذا، كنا نُشْرف على البيت، ومن ورائه الشاطئ الصخري.. ثم البحر.

كانت طيور النَّوْرس تصرخ وتنتحب.. فعَدَدتُ ذلك من حسن حظي: لأن صوت صراخها سيغطي على صوت ميكا إذا عاد للبكاء والعويل.

في ذلك الصباح، عندما جلسنا على المقعد الحجري المطلّ على الخليج، رويت لميكا كيف بدأت الحياة على الأرض.. والآن، جاء دوره ليحكي لي عن الحياة على كوكبه الذي جاء منه.

كان لا يزال يضع إبهامه في فمه أحيانًا، ويبسط يده ويلوح بها أحيانًا أخرى.. لكنه بدا لي كبيرًا وحكيمًا، مثل أبي تمامًا.. عندما بدأ يحكي لي عن الحياة على كوكبه.

قال: "الكوكب الذي أتيتُ منه اسمه "إليو".. وهناك، بدأت الحياة في البحر منذ آلاف الملايين من السنين.. ولا أحد

يدري كيف بدأت، ولا كيف تطورت.. ولكنَّ هناك أنواعًا كثيرة ومختلفة من الحيوانات على سطح إليو"..

هذا ما حدَث على الأرض بالضبط.. ومع أنني وميكا قد أتينا من كوكبين مختلفين، إلا أن ما حدث على الكوكبين كان متشابهًا جدًا.

قال: "منذ مئات الملايين من السنين، نشأ على إليو نوع من الحيوانات يُسمى "مامبو".. كانوا يبيضون بيضًا له قشرة صُلبة. ليس لدينا على إليو، حيوانات تلد صغارها أحياء".

فاندفعتُ قائلاً: "وكيف يخرج الناس إلى الحياة إذن؟!".

كان ميكا منشغلاً بحديثه، فلم ينحن لسؤالي.. وإنما راح يلوح بأصابعه..

ويقول: "لم يحْدث على كوكبنا ظواهر تتسبب في انقراض المامبو. لذلك، ظلوا يتطورون ويرتقون لملايين السنين.. والآن، هناك نوع من المامبو يستطيعون أن يتكلموا، وأن يفكروا.. وأن يبحثوا موضوعات معقَّدة عن الفضاء الخارجي.. وأنا واحد من هذا النوع من المامبو".

أرأيتِ يا كاميلا؟.. لقد قال: "وأنا واحد من هذا النوع من المامبو، النوع الذي يفكر".

تابع ميكا حديثه: "حينما حان وقت خروجي إلى الحياة.. كنت أرقد داخل بيضة، وضعها أبي وأمي فوق وِسادة،

فـي غرفـة دافئـة. ولم يكونـوا يتركون البيضـة وحدهـا أبـدًا ولـو لدقيقـة واحـدة؛ فعندنـا في إليـو حيوانات تسـرق بُيـُوض الآخرين..

"وكان أهلي يضعوني في عربة صغيرة، ويدفعوني أمامهم أينما ذهبوا.. وكانوا يسمُّون البيضة كنزهم الثمين.. فالبيض على إليو يُعَدُّ أغلى الكنوز".

عندئذ فقط ياكاميلا.. عرفتُ كيف وُلِدَ ميكا..

قال: "أصبحت ذراعاى وساقاى قويةً.. فكانت البيضة تتشقق كلما ركلتها أو حركت ذراعيّ.. وكانت الأسْرة كلُّها تتجمع حول الوسادة.. تنتظر".

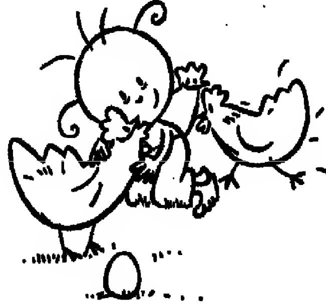
فصحـتُ مـن شـدة الإثـارة : "ثـم زحفـتَ أنـت خارجًا مـن البيضة".

أومأ ميكا برأسه موافقًا.. وقال: "لا أذكر شيئًا مما حدث يومئذ.. ولكن، لابد أن الضوء قد بهر عينيّ.. فقد كان الهدوء شديدًا والظلام دامسًا داخل البيضة.. وأظن أنني استلقيت على ظهري.. واضعًا إبهامي في فمي.. لا أفعل شيئًا".

هل سمعتِ ما قاله ميكا يا كاميلا؟ لقد عدَدْتُ ما حكاه لي ميكا عن كوكبه غريبًا ومثيرًا.. لكنه في الحقيقة، لا يقِلُّ غرابة ولا إثارة عما حكيتُه أنا له عن تاريخ الأرض، وعن أخي الصغير الذي قد حان موعد خروجه إلى الحياة.

عندئذ عرفت لماذا كان من الصعب على ميكا أن يفهم معنى حيوان ثديي.

ولكن.. أنا وميكا كنا أغرب ما في الموضوع... إذ، كيف انتهينا متشابهين إلى هذا الحد، بالرغم من اختلاف نشأتنا؟!



الجَبل



حتى الآن ياكاميلا، مازلتُ أرجِّح أن هناك حياةً على الكواكب الأخرى.. ومازلتُ، إلى الآن، أتساءل عن قوانين تطوُّر الحياة وارتقاء المخلوقات من خلية واحدة إلى مخلوقات عاقلة مفكرة: مثلي ومثلك.. ومازلت أتساءل: هل قوانين التطور هي نفْسُها في الكون كله؟..

إذا كان ذلك صحيحًا.. فلابد أن الحياة هناك نشأت، هي أيضًا، من نباتات وحيوانات دقيقة جدًا.. ثم تطورتْ حسب تغير بيئتها المحيطة.

يعتقد بعض الناس أن كُوَيْكبًا قد ضرب الأرض في الزمان الغابر، فتسبب في انقراض الديناصورات.. أي أن انقراض الديناصورات كان مجرد صدفة غيرت مجرَى التاريخ الطبيعي.. تمامًا مثلما نرْبح جائزة يانصيب.. ولولا أن هذا الكويكب قد ضرب الأرض، لاستمرَّت الديناصورات في التطور والارتقاء، وربما نشأ من سلالتها كائناتٌ عاقلة، تعمِّر المدن وتبني المستشفيات، وتصنع مركباتِ الفضاء والحاسوبَ، وتقيم الجامعات والملاعب الرياضية.

عندما انفجر ذلك الكويكب، انتشرتْ في الفضاء ملايينُ

الأطنان من الصخور والغبار، فحجبتْ حرارةَ الشمس، فانخفضتْ درجة الحرارة لأقلَّ من الصفر، فماتت أنواع كثيرة من النباتات والحيوانات.. ولم يبقَ على قيد الحياة إلا الحيواناتُ التي تحملت البرودة.

فالإنسان، تبعًا لهذا الرأي، تطوَّر عن الثدييات، التي تحملت البرودة واستمرت في الحياة.. لذلك، فالإنسان هو الذي وصل إلى القمر أولاً.. أما الزواحف، فتراجعت مكانتها، وفقدت قدرتها على منافسة الثدييات في الارتقاء..

قال ميكا: "أروع ما في زيارتك لكوكب آخَر غيرِ كوكبك.. أنه يزيدك فهمًا لكوكبك، ولو مقدارًا قليلاً.. فلكل كوكب، كما تعرف، مزاياه وعيوبه".

كان ميكا، في ذلك الوقت، يشْبه أبي تمام الشبه.. إلا أن أبي لا يضَع إبهامه في فمِه عندما يفكر، ولا يبسط أصابعه ويلوح بها في الهواء عندما يتكلم.

قال ميكا: "إذا كنتَ تعيش على جبل: فمن الأفضل لك أن تكون متسلقًا متمكنًا.. أما إذا عِشْتَ على أرض منبسطة: فمن الأنسب لك أن تكون عدّاء متمكنا.. وإذا عِشْتَ بالقرب من حيوانات مفترسة: فمن الخير لك أن تكون رديء الطعم.. بل الأفضل أن تكون سامًا. والأفضل من ذلك كله، أن تكون ماهرًا وذكيًا".

فأومأتُ برأسي موافقا..

قال: "ربما كان هذا القانون نفْسه هو الذي يسري على الكواكب الأخرى أيضًا".

قلت: "ماذا تقصد بالضبط؟".. انحنى ميكا بوقار..

وقال: "ألا ترى أننا متشابهان؟". قلت: "طبعًا. ولكن، لماذا؟"

فقال: "لأننا خُلِقْنا ليكون لنا أبناء وحفدة.. حتى لا ينقرض جنس الإنسان، ولا جنس المامبو.. لذلك، خُلِقْنا لنؤدي بعض الأعمال المتشابهة".

قلت: "أي أعمال؟!".

قال: "أنا وأنت نحتاج للطعام.. لابد أن نأكل لننمو، ونكون أصحِّاء، لنستطيع ذات يوم أن نبيض بيضة أو نلد طفلاً"..

"ولكن، ليس كل الطعام يصلح لنا.. فلابد أن نتذوقه أولاً.. إذن، لابد أن يكون لي ولك لسان".. وأخرج لسانه من فمه..

ثم هتف: "ألا ترى؟.. هذا وجه من أوجه تشابهنا".

هل تلاحظين ياكاميلا؟ هذا وجه واحد من أوجه تشابُهنا.. وإلا، فما الفرق بين أن تأكلي الفطائر المسطحة بمربى الفراولة، أو تأكلي بيضًا فاسدًا.. إذا لم تتمكني من تذوقها؟.. هل حاولت أن تعددي أنواع الطعوم التي تستطيعين تذوقها؟..

كان ميكا قد وضع إبهامه في فمه.. فأخرجه ثانية..

وقال: "وقد نتذوق طعامًا رديء الطعم، ثم نكتشف أنه سامٌّ أيضًا.. لذلك، من المفيد لنا أن نشُم الأشياء قبل أن نتذوقها.. ففي ذلك إنقاذ لحياتنا".

قلت: "لذلك، لك أنف، مثلما لي أنف.. لنتمكن من شم طعامنا قبل أن نتذوقه.. والكثير من الحيوانات تتشمم طعامها من مكان بعيد. وتشم رائحة أعدائها قبل أن يصلِوا إليها.. فتنجو بحياتها".

حاسة الشم هذه ياكاميلا حاسة رائعة.. ألا ترين كيف نشُم الروائح من مسافات بعيدة؟.. فقبل أيام قليلة، كنت عند شُجيرة العنب البري في أقصى الحديقة. وفجأة، أخبرني أنفي أن أمي تخبز كعكًا في الفرن.. فعدت مسرعًا إلى البيت، واندفعتُ إلى المطبخ أهتف: "كعك.. كعك..".

ولكن.. كيف استطاعتْ رائحة الكعك هذه أن تسافر في الهواء كلَّ تلك المسافة، حتى تصل إلى أنفي عند شجيرة العنب البري؟.. وكيف استطاع أنفي أن يخبر دماغي أن كعكًا يُخْبَز في الفرن.. وليس خبزًا مثلاً.. أو فطائر؟!..

سألت ميكا: "أتحب الكعك؟".. قال متعجبًا: "كعك؟!".

كان من الواضح أنه لم يسمع عن الكعك من قبلُ.. فتابعَ حديثه.. قائلا: "قد لا تعجبنا الطعوم نفسها.. وقد لا نحِب

الروائح نفْسها.. ولكن، مجرد القدرة على الشم والتذوق أمر مهم لي ولك بالقّدر نفسه".

جلس ميكا لفترة ساكنًا، يداعب الحشائش التي تنمو بين الصخور، ربما أعجبه ملمسها وهي تدغدغ أصابعه، فقلت: "يمكننا اكتشاف الأشياء باللمس أيضًا.. أليس كذلك؟".

قال: "بلي.. هذا صحيح.. لأن هناك شبكةً دقيقة من أطراف الأعصاب تغطي جلدي وجلدك.. فإذا لمسنا شيئًا ساخنًا، قد يحرقنا، أو حادًا، قد يجرحنا، أبرقت الأعصاب بإشارات إلى المخ.. وفي لمح البصر يجيب المخ برسالة تأمرنا بالابتعاد عن الخطر"..

وسحب يده عن الحشائش بسرعة: ليريني سرعة المخ في إرسال الرسائل إلى اليد..

ثم أشار إلى الجرح الصغير في إصبعه..

وقال: "لولا الأعصابُ التي في أصابعي.. لانغرس فيها الشّصّ (السنّارة).. ولآذاني وآلمني أكثر من ذلك".

قلت بسرعة، كي لا أتيح له الفرصة ليتحدث قبلي: "أنا وأنت نحتاج إلى أن نلمس كل ما يحيط بنا. فنحن الاثنين لنا احتياجات متشابهة.. لذلك، عندنا الوسائل التي تلبّي لنا هذه الاحتياجات".

أومأ ميكا برأسه بوقار.. ورفع نظره إلي، وابتسم ابتسامة حكيمة.. وقال: "ونحن الاثنين نحب أن يدغدغ أحد رقبتنا".

ثم أشار إلى طيور النورس التي تحلّق فوقنا..

وسألني: "تُرى.. لماذا تصرخ هذه الطيور عاليًا؟".

قلت: "ربما كانت تخبر بعضها بعضًا أين تجد طعامها".

فأومأ برأسه موافقًا، وقال: "من المزايا الرائعة على كوكبي وكوكبك، أننا نسمع الأصواتَ.. فإذا هدَّدَنا خطر..استطعنا أن نسمعه عن بُعد، لنختبئ، أو لنحذِّر إخواننا الصغار اللاهين بألعابهم.. إذن، فلابد لنا من أذنيْن لنسمع بهما".

قلت: "أذنين اثنتين.. لأن أذنًا واحدة لا تكفينا".

هز ميكا رأسه، وقال: "فعلاً.. لأنه لو كان لنا أذن واحدة، فلن نعرف مصدر الصوت.. ولن نستطيع تحديد اتجاه الخطر.. وهو أمر مهم جدًا.. لكي نحدد في أي اتجاه سوف نهرب".

نظرتُ إلى أذنيْ ميكا.. كانتا صغيرتين، وتختلفان قليلاً عن أذنَيَّ.. كانتا ثقبين صغيرين في جانبي رأسه..

قلت: "وهذا وجه آخر من أوجه التشابه بيننا".

جلسنا صامتَيْن لفترة.. نستمع لطيور النورس وهي تصيح.. ويصل إلينا صوت ارتطام أمواج البحر بالصخور.. ثم قلت: "ونستطيع أيضًا.. أنا وأنت، أن نسمع صوت أمواج البحر".

كانت هناك بعض الأعشاب البرية، تنمو بين الصخور مع الحشائش.. فانتزع ميكا عشبة منها، وقرَّبها من عينيْه.. وقال: "من المدهش حقًا.. أننا نستطيع أن نرى العالم من حولنا".

قلت: "ولنا أعين نرى بها.. فنحن متشابهان في ذلك أيضًا".

مالت الشمس نحو الغروب.. فأشار ميكا إلى قرص الشمس.. بالطريقة نفسها التي أشار بها نحو قرصها عندما أشرقت في ذلك الصباح..

وقال: "إننا نرى ما حولنا، لنبحث عن طعامنا، ونكتشف الأخطار التي تقترب منا.. والرائع حقًا، أننا نستطيع أن نرى بعضُنا بعضًا.. ونتفاهم، ويسأل أحدنا الآخر عما يفكر فيه، ونتأمل الفضاء، ونحلُم معًا بأنواع مختلِفة من الحياة على الكواكب الأخرى".

رحت أفكر فيما قاله ميكا.. أليس من الرائع حقًا أن أجلس على الربوة، وأنظر إلى البحر. لمجرد أن لي عينيْن تبصران؟!.

بعد فترة طويلة من الصمت.. أعلَن ميكا: "إن البيضة شيء معجز ورائع حقًا".

كان قد قال ذلك من قبل.. لكنه تابع قائلاً: "داخلَ البيضة تتشكل عينان تستطيعان ذات يوم أن تكتشفا ذلك الكون الواسع، الذي نشغل حيزًا ضئيلاً منه.. كأن العالم كله ينمو ويكبَر داخل هذه البيضة المظلمة".

ففكرت في سري: "أو داخل رحم الأم".

قال ميكا: "إننا متشابهان من أوجه كثيرة.. فكلٌّ منا يستطيع أن يتذوق ويشُم ويلمس ويبصر ويسمع".

قلت: "هناك حيوانات كثيرة أخرى تستطيع أن تفعل كل ذلك.. لكنها لا تشبهنا".

قال: "نعم.. فأنا وأنت لا نحتاج إلى أربعة أقدام لنمشي عليها: ففي الزمن السحيق، منذ ملايين السنين، اعتدلت قامة أسلافي وأسلافك.. ووقفوا على قدمين اثنتيْن فقط.. فتطورت أقدامهم الأمامية، وتحولت إلى ذراعين ويدين".

قلت: "فعلاً.. فقد احتاج سلفُنا - الإنسانُ الأول الذي كان يعيش في الغابات - احتاج إلى يديْه ليُمسك بهما الأغصان، ويقطف بهما الثمار.. ثم تعلَّم أن يقذف الحجارة بيديه، ليحمي نفسه من الحيوانات المفترسة.. ثم راح يستعمل يديه في صناعة الأشياء".

كنت قد بحثت هذه الموضوعات مع أبي.. وقد أخبرني أن الحيوانات التي تمشي على أربع أقدام، لا تستطيع أن تستعمل قدميها الأماميتين في أداء أي عمل.

قلت: "ولكن.. لماذا لا يكون لنا أربع سيقان وذراعان؟.. أو ثلاث سيقان وست أذرع؟!"..

انحنى ميكا انحناءة مسرحية مؤثرة، وقال: "لأننا انحدرنا من سلالة حيوانات لها أربع سيقان فقط".

كان هذا الموضوع يَشغلني دائمًا.. فالبرمائيات لها أربع

سيقان فقط.. أي، ما يكفي ليتحول إلى ساقين وذراعين فقط.. لكنّ إجابة ميكا لم تكن كافية لتبدّد حَيْرتي.

أليس من الغريب أنني وميكا قد انحدرنا من حيوانات صغيرة ذات أربع سيقان؟! لماذا لم ننحدر من حيوانات لها ست سيقان.. أو ثماني سيقان مثلاً؟..

كأن ميكا قد قرأ أفكاري.. لأنه قال: "أعتقد أننا لن نكُون أكثر كفاءةً إذا كان لنا أربع أيد بدلاً من اثنتين.. أعتقد أن لدينا ما يكفينا.. ولا داعي لأن نكون مسئولين عن العناية بأكثر مما نحتاج من أذرع وسيقان".

هل فهمتِ ما قاله ياكاميلا؟.. فحتى يومنا هذا، مازلت أتعجب عندما أفكر أن البرمائيات، منذ خرجتْ من البحر، تدب على أربع أقدام.. كان لديها كل ما هو ضروري للإنسان.. لا أكثر ولا أقل مما يحتاج إليه الإنسان.

حتى إنني أتساءل أحيانا.. هل كانت هذه البرمائيات تعْرف مصيرها؟!..

قال ميكا: "وهكذا، في يوم من الأيام، اعتدلتْ قامة نوع من المامبو ونوع من الثدييات، وقاموا على أقدامهم الخلفية فقط.. فتحررتْ أياديهم.. وكان تطوُّر اليدين ضروريًا ليتطوَّر المخ ويرتقي".

قلت: "لماذا؟"..

فانحنى ميكا، وقال، "استعمل أسلافنا أيديهم في صناعة الأدوات التي تيسِّر لهم معيشتهم.. ولكن، حتى تتقن الأيدي هذه الصناعاتِ، لابد للمخ أن يتطور ويرتقي هو الآخر.. وهكذا، فالحيوانات التي أتقنت العمل بيديها، ومهرت فيه، اكتسبت مميزات على الحيوانات التي مازالتْ يداها تتدليان إلى جانبيها بلا عمل".

قلت: "وهكذا، ازداد الشَّبه بيني وبينك".

فأومأ برأسه.. وقال: "نعم.. فأنا وأنت نستطيع التفكير".

قلت: "لذلك، فرءوسنا كبيرة".

سكت ميكا فترة، ثم نظر إليّ، وسألني سؤالاً.. يبدو أنه كان يَشغل باله منذ مدة..

قال: "ألا يؤلم أمك أن يندفع أخوك برأسه، خارجًا من جسدها؟".

فعضضت شفتي، وقلت: "بلى"..

فقد كنت أتجنب التفكير في هذا الأمر..

قال: "لكل كوكب مميزاته الخاصة".

فقلت بسرعة: "العاملون في المستشفى يساعدونها".

فلوح بأصابعه، وقال: "هذا بالضبط ما كنت سأقوله"..

قلت: "ستقول ماذا؟".

قال: "لابد للناس، مثلي ومثلك، أن يساعدوا بعضهم بعضًا..

لذلك، من المهم أن يتمكنوا من تبادل الحديث ولولا ذلك لما استطاع أحد أن يسافر إلى كوكب غير كوكبه.. وهذا وجه آخر من أوجه التشابه بيننا".

كنت أنا الآخر قد خطرتْ ببالي هذه الخواطر..

إنَّها خُطوةٌ صَغِيرةٌ للإنسَان
لكنَّها قَفزةٌ عِملاقةٌ للإنسَانيَّة

هذا ما قاله رائد الفضاء، أرمسترونج، عندما وضع قدمه على سطح القمر.. كأنه، بهذه الكلمات، لم يسافر وحده إلى القمر.. وإنما حَمل معه الجنس البشري كله.

غمغم ميكا: "إنها خُطوة صغيرة للإنسان

لكنها قفزة عملاقة للإنسانية"

اندفعتُ قائلاً: "كيف عرفتَ ما أفكر فيه؟!".

وضع ميكا يده على فمِه بسرعة.. وأحس بالخجل..

وقال: "آسف".

كنتُ أريد أن أفهَم ما حدث بالضبط.. كيف استطاع ميكا أن يقول كلامًا كنت أفكر فيه لنفسي.. فقد كنت متأكدًا أنني لم أذكر موضوع نزول الإنسان على سطح القمر مع ميكا أبدًا.. ومن المؤكَّد أن ميكا لم يكن على سطح القمر عندما قال أرمسترونج هذه الكلمات الشهيرة..

فقلت: "لماذا تتأسف؟".

قال معترفًا: "لأني نطقتُ بما كنتَ تفكر فيه.. كان ذلك تطفلاً مني.. لكنَّ أفكارك كانت مثيرة جدًا، فانجرفتُ معها ونسيتُ نفسي".

ثم أخبرني أنه من المعتاد على كوكب إليو أن يقرأ المامبو أفكار بعضهم بعضًا.. بل إنهم كثيرًا ما يتبادلون الأحاديث الطويلة، دون أن ينطق أي منهم كلمة واحدة.

قال ميكا: "وهي مَقْدرة في غاية الأهمية والفائدة.. فأنا لم أقض على هذا الكوكب إلا ساعاتٍ قليلةً.. فكيف استطعتُ الحديث بلغتكم؟.. وكيف عرفت كل هذه المعلومات عن كوكبكم؟.. إلا لأنني أقرأ أفكارك؟!".

قلت له: "إننا لا نشْبهُكم من هذا الوجه.. فنحن لا نستطيع قراءة أفكار الآخَرين".

فردَّ برقة: "لكنكم تستطيعون القيام بأعمال أخرى كثيرة، لا نستطيع نحن القيام بها".

حاولتُ التفكير في عمل مميَّز نستطيع القيام به.. فتذكَّرت خوف ميكا من جرس الهاتف..

فقلت: "عندنا الهاتف.. وهو جَهاز نستطيع به أن نحادث الناس الذين يعيشون في الطرف الآخَر من الأرض.. فكوكبنا هذا عبارة عن شبكة من أسلاك الهواتف التي نتواصل بها".

قال ميكا بحسد: "لكل كوكب مميزاته الخاصة".

هل لاحظتِ ما حدَث ياكاميلا.. لقد أصابني الذعر عندما اكتشفتُ أن لميكا القدرة على قراءة أفكاري.. أظن أنه أصابه الذعر نفْسه عندما حدَّثته عن الهاتف. تصوري حاله الآن لو أنني حدَّثته عن الكمبيوتر وشبكة الإنترنت..

وهكذا.. اكتشفت أخيرًا، كيف استطاع ميكا أن يتحدث بلغتي.. ولماذا كان من السهل علينا أن نتحدث عن الحياة على الأرض.. لأنه يستعير أفكاري، ويتحدث بها.. لكني كنت لا أزال محتارًا من هذا التشابه العجيب بيننا.

عندئذ، حدثني ميكا عن الجبل..

تلفَّت ميكا حوله، وألقى نظْرة واسعة على المنظر المحيط بنا.. ثم وضع يده، بوقار ورزانة، على كومة الحجارة التي كنتُ كوَّمتها مع أبي..

وقال: "إذا كنتَ تعيش في وادٍ.. وأعيش أنا في وادٍ آخر.. أليس من الممكن أن يتسلَّق كل منا، خارجًا من واديه.. حتى نصلِ ذات يوم إلى قمة الجبل.. وتتماسكَ أيدينا؟"..

كان ذلك سؤالاً، فانحنيت له في الحال.. لكني لم أفهم معناه.

فتابع ميكا كلامه: "ربما كانت هناك طرق كثيرة للصعود من الوادي إلى قمة الجبل.. لكنَّ الجبلَ سيظل دائمًا الجبل نفسه.. لا يتغير أبدًا.. ولابد أن يكون بيني وبينك تشابه كبير حتى نستطيع الوصول إلى قمة الجبل.. فمثلاً، لابد أن يكون كل منا من متسلقي الجبال.. وهناك، على القمة.. قد نبني معًا بنيانًا ضخمًا من الحجارة.. ثم نجلس عليه لنرتاح قليلاً بعد هذا الجهد الذي بذلناه.. وننسى، ولو لفترة قصيرة، همومنا كلها، كبيرها وصغيرها.. كأننا تركناها كلها وراءنا في الوادي".

قلت: "هل تعني أننا قد التقينا على الجبل نفسه.. مع أنني أتيتُ من كوكب، وأتيتَ أنت من كوكب آخر؟".

فأومأ برأسه موافقًا.. وقال: "لا يُهِم اختلاف المكان الذي انطلقنا منه.. إنما المهم حقًا، هو الهدف الذي نسعى إليه..

قد تختلف نشأتنا، وحياتنا السابقة: فأنا من المامبو وأنت من الثدييات. لكن الشَّبه بيننا يزداد تدريجيا.. بمرور الزمن".

كنت أشعر بنوع من الرهبة.. فقد كنا نتحدث عن موضوعات في غاية الصعوبة والتعقيد.

قال ميكا: "بدأت الحياة على كوكبي، وعلى كوكبك أيضًا، من خلايا أحادية بسيطة.. لا أتصور أن هناك بدايةً أخرى.. وكلما تطورت الحياة، أصبحت أكثر تنوعًا.. ثم تطورت حواس بعض الكائنات، وارتقى جهازها العصبي.. حتى أصبح للإنسان عقلٌ

أرقى من باقي المخلوقات.. يتفهم به العالَم من حوله.. هل تتصور مسارًا آخَر للتطور؟".

انحنيت لهذا السؤال.. لكني لم أعرف له إجابة.

قال: "بدأتِ الحياةُ في أعماق المحيط.. ففي البدء، لم يكن على الأرض غير المياه.. ثم هانحن الآن نجلس هنا، نُشرِف على الشاطئ الصخري.. ربما كانت هذه النتيجة هي الهدفَ منذ البداية".

حدَّق ميكا في البحر قليلاً.. ثم قال: "كان الكوكب راقدًا في سُبات. ثم تحركت فيه الحياة بالتدريج.. فاضطرب البحر، وتحركت الأمواج، وتمايلت الحشائش، ورفرفت أجنحة الطير فوق المياه.. وهكذا، دبَّت فيه الحياة فعلاً..

"لكنها لم تستيقظ كاملة إلا الآن، عندما عرفتم، أنتم سكان هذا الكوكب، جزءًا من تاريخه، ووصلتم إلى القمر، واكتشفتم النقطة السحرية التي يصبح الأعلى عندها أسفل، والأسفل أعلى.. والأكثر من ذلك، أنكم وجهتم أنظاركم نحو الكون".

فقلت برهبة: "نعم.. هذا ما حدث فعلاً".

لم أجدْ ما أقوله.. فقد كدْنا نصل، في تلك اللحظة، إلى قمة الجبل..

كان ما يُهمنا فعلا هو الجبلَ نفسه، وليس طريقَ صعوده الطويلةَ الشاقة.

أخيرًا قلت: "ربما كانت هنالك حواسٌ أخرى لم نكتسبها بعدُ".

قال ميكا: "نعم.. ربما كان ذلك فعلاً.. فهانحن الآن جالسان على هذا الكوكب.. في ذلك الفضاء الفسيح.. نفكر ونتحدث عن الكون.. ليت لي حاسةً أخرى، أشُم بها وأرَى، كيف بدأت الحياة في هذا الكون".

لم أنحنِ طبعًا لهذه الكلمات الحكيمة التي مسَّت قلبي.. لكني حفظتُها.

التقط ميكا حجرًا من الأرض.. وقال: "ما هذا؟".

تصورتُ أن هذا سؤال عادي.. فقلت: "إنه قطعة من حجر الصوان.. قطعة جرانيت عادية".

فقال ميكا بضيق: "ليس هناك شيء عادي في هذا الكون.. لأن كل ما في هذا الكون، جزء من سر الوجود.. حتى أنا وأنت جزء من هذا السر.. بل إننا ذلك السر الذي لا يمكن حل شفرته".

رفع ميكا الحَجر، وقرَّبه مني لأراه بوضوح..

وقال: "مِن أين جاء هذا الحجر؟.. أعرف طبعًا أنه جزء صغير من هذا الكوكب.. وهذا الكوكب جزء صغير من الكون.. ولكن، ما هو الكون؟.. ومن أين أتى؟".

لم أكن أملك إجابة لهذا السؤال.. ولم أجازف بتخمين إجابة عن أعظم أسرار هذا الكون.

وضع ميكا الحَجر على قمة الحجارة التي بنيتها مع أبي..

فقلت لنفسي: "لقد شارك ميكا في بناء هذه الكومة".

ثم سألته: "هل تعتقد أن الكائنات قد نشأت من تلقاء نفسها؟.. أم أن الله خلَق كل شيء؟".

قال ميكا: "لا أعتقد أن الديناصورات وأسلاف المامبو قد سألوا هذا السؤال".

فضحكت وقلت: "لكننا نسأله.. فالانشغال بالأسئلة الصعبة، وجه آخر من أوجه تشابهنا".

فابتسم وقال: "نعم.. فهذه التساؤلات من أهم أوجه الشّبه بيننا".

ثم سألني سؤالاً.. لن أنساه أبدًا طول حياتي..

قال: "إذا لم يكن لهذا الكون إله.. فكيف أصبح الكون نفسه كما نراه؟"..

فكرت كثيرا في هذا الموضوع: "ما هو الكون؟ وكيف أصبح كما نراه؟.. من أين بدأ؟.. وأين منتهاه؟.."

ثم سألته: "وأنتَ.. ماذا تعتقد؟".

انحنى ميكا انحناءة شديدة، وقال: "لا أعتقد أن هذا الكون قديم أزلي".

ثم برقت عيناه.. وقال: "إن كوكبكم يدور حول الشمس بقوة الجاذبية.. ويتحرك البحر في حركة المد والجزر بقوة

الجاذبية.. فلابد أن هناك قوة أقوى من كل شيء، أخرجتْك من المحيط، وجعلتْ لك عينيّن تبصِر بهما، وعقلاً تفكر به".

سكت، ولم أدر ما أقول..

فقال: "أعتقد أن مَن لا يؤمن بخالقٍ لهذا الكون.. يفتقد حاسة من الحواس.. حاسةً في غاية الأهمية".



اللَّيل



كادت الشمس تختفي خلف الصخور.. وفجأة، سمعنا صوتًا حادًا يعلو على صوت طيور النورس..

يقول: "أين أنت يا چو؟".

كانت الخالة هيلين تبحث عني في الحديقة.. ولو أنها رفعت رأسها نحو الربوة، لرأت ميكا معي.. فهي تعرف أنني أجلس هناك أحيانا.. أتأمل ما حولي.

قلت لميكا: "لابد أن أعود الآن.. فقد اقترب موعد نومي".

نهضت واقفًا.. وانطلقتُ أجري.. فسمعت ميكا من ورائي يقول: "لقد حان الآن موعد استيقاظي".

التقيتُ بخالتي على ممر الحديقة.. وأخبرتني أن أبي قد اتصل مرة أخرى، وقال إن المولود لم يصل بعدُ.. ولابد أن أتناول عشائي الآن لأنام.

جلست لآكل عشائي، وأفكر في ميكا.. فقد انطلقت أجري بسرعة، وتركته ورائي.. فأين هو الآن؟.. هل يستطيع العناية بنفسه؟.. وماذا قصد بقوله إن موعد استيقاظه قد حان؟..

آويت إلى فراشي، وتمنّتْ لي خالتي ليلة سعيدة، وأطفأت النور، ونزلت لتنام على الأريكة في الطابق الأرضي..

وكان آخر ما قالته قبل أن تغادر غرفتي: "تصورّ يا چو.. عندما تستيقظ: سيكون أخوك أو أختك قد خرج إلى الحياة".

فَرُحْت أفكر في أخي الصغير.. وأقول لنفسي: "من حسن حظي أنني تدربت اليوم على الحديث عن أرضنا والعالَم مِن حولنا.. لأني سأكون مسئولاً عن تعليم أخي كلّ ما أعرفه عن نشأة الكون وبداية الحياة".

لابد أني قد غفوت قليلاً.. لأني استيقظت على طرقات خفيفة على النافذة! كان ذلك ميكا.. فقد تسلق إلى سطح البيت بعدما تركته في الحديقة.

فقمت من فراشي، وفتحت النافذة، وقلت له: "صَهْ.."

فهمس قائلاً: "أتحب أن تصعد معي لتراقب النجوم؟".

ترددتُ قليلاً، خوفا من أن تعود خالتي إلى الغرفة.. ثم ارتديت ملابسي، وخرجت من النافذة.. وتسلقت السطح المنحدر مع ميكا.. حتى وصلنا إلى حافته العليا.

كانت ليلة صافية.. تضيئها النجوم. وكان الهواء باردًا.. فجلسنا متقاربين لنتدفأ.

أشار ميكا إلى نجمة نورها شديد، وتلمع أكثر من غيرها.. وقال بوقار: "ربما كانت تلك النجمة التي فوقنا، هي الشمسَ التي تشرق على إليو".

قلت: "وربما كانت تلك النجمة تحتنا، وليست فوقنا.. ألا تذْكر أنك سافرتَ إلى أعلى.. حتى ارتطم رأسك بهذا الكوكب".

كنت لا أزال منشغلاً بفكرة أن ميكا قد خرج ذات يوم من داخل بيضة.. فسألته:

"منذ متى خرجْتَ من البيضة إلى الحياة على إليو؟".

انحنى ميكا لسؤالي.. وقال: "منذ عام واحد بالضبط".

فصحت به: "كل عام وأنتَ بخير".

ثم قلت برزانة: "وأنا وُلدتُ منذ ثمانية أعوام.. فأنا أكبر منك كثيرًا".

قال: "لكن السنة على إليو أطول من السنَّة على الأرض، فالسنة تتحدد حسب سرعة دوران الكوكب حول الشمس".

قلت بسرعة: "يستغرق دوران الأرض حول الشمس 365 يومًا وربع يوم. لذلك، نضيف يومًا للسنَة كلَّ أربعة أعوام.. لينضبط التقويم. وأعرف طبعًا أن السنَّة قد تكُون أطول أو أقصر من ذلك في الكواكب الأخرى".

قال ميكا: "اليوم عندنا أطول كثيرًا من اليوم عندكم.. فقد أشرقت الشمس منذ وقت قصير جدًا.. وهاهو ذا الليل قد عاد سريعًا مرة أخرى".

فشرحت له: "لأن الأرض عندنا تدور حول نفسها دورة كاملة في اليوم الواحد.. واليوم فيه أربع وعشرون ساعة.."

فسأل ميكا: "ما الساعة؟".

فانتبهت إلى أن فكرة الأربع وعشرين ساعة ليست حقيقةً علمية.. وإنما هي فكرة اخترعناها لتقسيم اليوم.. وقد كان في

استطاعتنا أن نقسم اليوم إلى عشر ساعات مثلاً.. وتكون الساعة أطول من الساعة الحالية، نقسّم الساعة مثلاً إلى مائة دقيقة، بدلاً من ستين.

فقلت لميكا: "إننا نقسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة.. في كل ساعة ستون دقيقة.. ثم قسمنا الدقيقة إلى ستين ثانية".

قال ميكا: "الآن فهمت.. ولكن، ما طول الثانية؟".

فرحتُ أعد بتأنٍّ: "واحد.. اثنان.. ثلاثة..".

ووضحت له أن الفترة بين نطقي لكل رقم تمثل ثانية واحدة تقريبًا.

راح ميكا يفكر، ويحسب على أصابعه.. كأنه يحاول استنتاج شيء ما..

ثم قال: "إذن فعمرك على كوكبي سنة واحدة وثمانية أيام".

اختصارًا للحسابات، وجدتُ أنني أكبر من ميكا بثمانية أيام.. وكان هذا ما يهمني في الموضوع كله.

كانت النجوم تلمع في سماء الليل كأنها إبر مضيئة.. فسألت ميكا: "لماذا أتيت إلى هنا؟".

قال: "لألتقي بك! هل تعتقد أن سقوطي في حديقة بيتكم، بينما أنت وحدك بالمنزل تنتظر مولد أخيك الصغير، مجرد صدفة؟!.."

عددتُ هذا سؤالاً متميزًا، فانحنيت له.

لكن، لا يزال هناك بعض الأجزاء الغامضة في هذه القصة.

قال ميكا: "ولكن هذا كله مجرد حلم".

قلت: "ماذا تقصد بهذا كله؟".

قال وهو يلوح بأصابعه: "حلمت أنني طرت في الفضاء بمركبتي الفضائية، وأنني أمضيت زمنًا طويلاً لا أرى إلا النجوم والمجرات.. وأحيانًا ألمح شهابًا أو مذنبًا..

وفي أحد الأيام، وصلتُ إلى المجموعة الشمسية.. ومررتُ أولاً بكوكب صغير بارد على حافة المجموعة.. ثم مررت ببعض الكواكب الكبيرة ذات الأقمار والحلقات الواسعة"..

ثم فجأة.. رأيت من بعيد جوهرة صغيرة، لونُها بين الأزرق والأخضر.. كانت تشبه الجرادة الصغيرة. فسألت نفسي: هل عليها حياة ياترى؟.."

قلت بسرعة: "إنها الأرض.. إذن، هذا ليس حلمًا".

فهز رأسه معترضًا.. وقال: "لكني متأكد أنه كان حلمًا.. وأنني كنت في غاية الفضول.. ففتحت الكوة، وصحت في الظلام: مرحبًا.. هل من أحدٍ هناك؟.. أم أنه كوكب مهجور وخالٍ من الحياة؟.."

رحت أتخيل ما يقوله ميكا..

قال: "وفجأة.. سقطتُ من الكوة، وتدحرجتُ بسرعة مذهلة نحو سطح هذا الكوكب الغريب.. فصحتُ: النجدةَ.. أنقذوني.. ومع أنني كنت أعرف أنه لا يوجد مَن ينقذني.. ظللتُ أصيح: النجدة.. إنني أهوي.."

فقلت بلهفة: "لابد أنك كنت فزِعًا".

أومأ ميكا برأسه وقال: "وسرعان ما وجدت نفسي متدليًا من شجرة التفاح، لا أصل إلى سطح الأرض.. وأنت تعرف باقي القصة".

نعم.. كان متدليًا من شجرة التفاح.. وقد رأيتُه بعينيّ.

قال ميكا: "كنت أعرف طول الوقت أنني في حلم.. ومع ذلك، استمر ذلك الحلم".

قلت: "ربما حلمت أيضًا أنك خرجت من بيضة".

هز رأسه بالنفي.. وقال: "أنا على يقين من ذلك.. كما أنني على يقين بأننا جالسان معًا على سطح بيتكم.. نحدّق في الفضاء".

قلت: "ولكن، إذا كانت رحلتك إلى هذا الكوكب مجرد حلم.. إذن، فلابد أن جلوسنا معًا على سطح هذا البيت فى هذه الليلة مجرد حلم هو الآخر.. وإذا كان الأمر كذلك، فلابد أن أحدنا يحلم".

أومأ ميكا برأسه.. وقال: "لكل كوكب جانبان.. ولا يمكن أن يواجِه الجانبان الشمس في وقت واحد.. وكذلك الحالُ مع الأحلام.. فأحدُنا يحلُم، والآخر يكُون موجودا في الحلم.. ولا يمكن أن نكون نائمَيْن ومستيقظَيْن في الوقت نفسه".

قلت: "من منا ياتُرى الذي يحلم؟ ومن الموجود في الحلم؟.."

قال ملوحًا بيده: "لا فرق بين الحالتين.. المهم أننا قد

التقينا على قمـة ذلك الجبـل.. فمـن النادر أن يلتقي الناس عند القمة".

قلت: "ولكن، إذا كنتُ أنا الذي يحلم.. فلا يمكن أن تكون أنت موجـودًا قبل أن يبدأ حلمي... ولا بد أنك ستختفي في اللحظة التي استيقظ فيها من الحلم".

قال: "مَن أدراك أنك الشخصُ الوحيد الذي يحلُم بي؟.. ومن أدراك أنك لن تحلُم بي مرة أخرى؟".

نزلتْ عليَّ هذه الأسئلة مثْل الصاعقة.. فلمْ أحاول البحث عن إجابة لها.. واكتفيتُ بأن هززت رأسي..

لقد أعطى كلام ميكا هذا معاني جديدة لكل ما تحدَّثنا عنه من قبلُ.

عندئذ فقط اكتشفت أنني ارتعد من البرد، كما أنني بدأت أتثاءب، ولكني كنت مصممًا على ألا أفترق عن ميكا.

فقلت: "عندي فكرة".

نظر إليَّ نظرة غريبة، خالية من التعبير..

كنتُ أخشى أن يستيقظ ميكا، ويختفي من أمامي فجأة، فأردت أن أشركه في فكرتي بسرعة.

فقلت: "ما رأيك في أن تنام هذه الليلة تحت سريري؟".

سُرَّ ميكا بدعوتي له أن يقضي الليلة في غرفتي.. إذ يبدو أن رقة المعاملة ومراعاة مشاعر الآخرين أمور معروفة ومستحَبة في الكون كله.

فقد قال: "على الأقل، سوف آتي معك إلى غرفتك".

تسللنا معًا من النافذة إلى الغرفة.. وراح ميكا يتأملها كأنه يراها للمرة الأولى والأخيرة..

ثم قال: "من اللطيف أن يعيش الإنسان في بيت جميل كهذا.. ومن الرائع أيضًا أن يكون لك أخ صغير".

كان على سريري بطانية احتياطية، لأتغطى بها في الليالي الباردة.. ففرشتُها تحت السرير.

وقلت: "نمْ هنا.. ولكن عدني أن تظل هادئًا إذا حضرَت الخالة هيلين".

وقف ميكا يدير الكرة الأرضية المعلّقة.. ثم قال وهو يديرها أسرع وأسرع: "لن أصدر أي صوت".

قلت: "هل تتصور أنه قد مضى على لقائنا أكثر من اثنتي عشرة ساعة؟"

قال: "أو ربما دقائق قليلة فقط".

قلت: "كانت ساعات طويلة بالنسبة لي.. وعندما نستيقظ في الصباح، يكون قد مر يوم كامل".

أوقف ميكا الكرة الأرضية بإصبعه.. ونظر إليّ ثم قال بحماسة: "الأسفار تطُوف بك حول العالم، أما الأحلام فتأخذك إلى داخلِ العالم.. ولكن، لا يمكننا السفر في أكثر من اتجاه واحد في وقت واحد".

مازلت أذْكر هذه الكلمات إلى الآن ومازال الفضاء الخارجي

يثير لديَّ اهتماما .. لكن أكثر ما يثير اندهاشي وتعجُّبي هو أن لي عقلاً، يستطيع أن يأخذني إلى عالمي الخاص..

زحف ميكا تحت السرير، ورقد على البطانية.. فقلت له: "تُصبح على خير".

قال: "أو صباحَ الخير.. فالأرض تدور وتدور حول نفسها".

وضعت رأسي على الوسادة.. وفجأة سمعتُ صوت ميكا يهمس في أذني: "لقد انقضت ملايين السنين قبل أن يوجد كائن حي مثلنا .. كائن يفكر ويحلم، يتذكر وينسَى.. فالعالم كله مسخَّر لنا"..

كانت هذه آخرَ كلمات قالها لي ميكا .. ثم زحف ثانية تحت السرير.. واستغرقْنا في النوم نحن الاثنين.



القُبَّعة



بعد قليل، دخلت الخالة هيلين الغرفة.. فاستيقظتُ متصورًا أن الليل قد انقضى بسرعة.

اقتربتْ خالتي من سريري.. فخشيت أن يلمس ميكا رجلها أو يقرصها..

قالتْ بسعادة: "استيقظْ يا چو"..ثم جلستْ على طرف سريري وربتت شَعري..

وقالت: "استيقظ يا چو.. لقد اتصل أبوك من المستشفي وقال إنه قد جاءك أخ صغير".

عندئذ.. انتبهت تمامًا.. فقد وصل أخي الصغير إلى العالَم أخيرًا وبعد طول انتظار.

قلت: "كنتُ متأكدًا أنه سيكون أخًا".

قالت الخالة هيلين إنها ستسلق بيضًا لإفطاري، وإن أبي سيعود قريبًا ليأخذني لأرى أخي الوليد في المستشفى.

خرجتْ خالتي من الغرفة.. فانحنيت ونظرت تحت السرير.. وقلت: "صَهْ.."

لكني لم أجد أحدًا.. ورأيت بطانية ميكا مطويةً إلى جوار السرير.

في الحال.. خطر ببالي أن ميكا قد استيقظ من نومه، لذلك لم أجدْه تحت السرير.. ورجوت أن يكون قد وصل إلى كوكبه إليو قبل أن يستيقظ تمامًا.. وإذا لم يكن قد عاد إلى كوكبه.. فأين هو الآن؟..

وكذلك.. لم أجدْ أرنبي الأبيض..

كان هذا الأرنب هو صديقي المخلص والوحيد قبل أن ألتقي بميكا.. وقد بحثتُ عنه في كل مكان، فلم أجده..

فقلت لنفسي: "إذا كان ميكا قد أخذه معه ليؤْنس وَحدته ويسلّيَه في رحلته الطويلة عبر الفضاء.. فلا مانع عندي.. خاصة أن عندي الآن أخا صغيرًا".

اغتسلتُ، ونزلت إلى المطبخ.. فوجدتُ الخالة هيلين قد أعدَّت مائدة الإفطار.. فتردَّدت طويلاً قبل أن أطلب منها أن تقشّر لي بيضتي..

بعد الإفطار، عُدت إلى غرفتي لألعب بمكعباتي.. حتى سمعتُ صوت سيارتنا.. فاندفعتُ، أنا وخالتي إلى الباب الأمامي، فوجدنا أبي يهُم بدق الجرس..

تذكَّرت ميكا، وتذكرت فزَعه من صوت الجرس.. فقلت لنفسي: "لابد أنه الآن قد غادر المجموعة الشمسية".

احتضنني أبي، ورفعني عن الأرض..

وقال: "لقد أصبح لك أخ صغير رائع يا چو.. سأبدّل ملابسي

واغسل أسناني، ثم آخذك إلى المستشفى لترى أخاك الجديد وتزورَ أمك".

وفجأة.. وجدْت نفسي أبكـي.. بكيت وبكيت، حتى كـاد أبـي أن يبكي معي.

وحتى يومنا هذا، لا أعرف بالتحديد ما سبب بكائي.. فقد كنت في غاية السعادة.. لأنه قد أصبح لي أخيرًا أخ صغير.

وظللت أبكي وقتا طويلاً.. وظل أبي يحتضنني ويربت رأسي حتى هدأت..

أخيرًا.. انطلقْنا بالسيارة إلى المستشفى.. وفي طريقنا، أوصلْنا الخالة هيلين إلى المدينة.. فهي لم تذهب إلى المستشفى، لأن أفراد الأسرة فقط كان مسموحًا لهـم برؤية الأم والوليد.

جاء دوري أولاً، فاقتربت من أمي، فاحتضنتْني.. لكني لاحظتُ أنها كانت ضعيفة وشاحبة..

وكان أخي الوليد يرقد في مهد صغير، في غرفة واسعة.. بها أطفال كثيرون غيْرُه، كلهم حديثو الولادة.

أصابني نوع من خيبة الأمل عندما رأيت أخي الوليد.. فقد كان أصغرَ مما تصورتُ.. ووجهه أكثر احمرارًا مما تخيلته.. وكان مستغرقًا في نومه.

ثم حدث أمر مثير.. فقد بدأ أخي يستيقظ ببطء.. وراح

يثْني أصابعه الدقيقة الصغيرة ويبسطها.. ثم وضع يده في فمه، وراح يمصها.

كان لا يستطيع أن يتكلم بعدُ.. وربما كان لا يعرف التفكير.. لكنه بدا مندهشًا..

لابد أنه كان مندهشًا من هذا العالَم الجديد الذي وصل إليه منذ قليل..

كان يمد يده، ويلوح بأصابعه في الهواء.. كأنه يحاول الإمساك بشيء ما..

أو ربما كان يريد أن يخبرني بشيء ما.

كنت لا أزال أذْكر آخر كلمات قالها لي ميكا.. فقلتها لأخي..

قلت: "موّلد سعيد ياأخي.. العالم كله في انتظارك".

بعدَ أيام، عادتْ أمي إلى البيت، ومعها أخي الوليد.. وكنت قد أعددتُ لوحة جميلة، تبدو فيها الأرض كما تّظهر لمن ينظر إليها من الفضاء..

وكتبت عليها: "مرحبًا.. هل من أحدٍ هناك؟.."

أثار أخي الصغير اهتمامي وإعجابي لأيام وأسابيعَ عديدةٍ بعد مولده.

كان يصرخ أحيانا.. حتى أضع أصابعي في أذني. وإذا اقتربتْ منه أمي، يهدأ في الحال.. وإذا أرضَعَتْه، توقف تمامًا عن البكاء.. أما أنا وأبي، فكنا نعجز عن تهدئته.

كنت مشغولاً في تلك الأيام.. لكني لم أتوقف أبدًا عن البحث عن أرنبي الأبيض.. صحيح أنني لم أعد في حاجة إليه.. فقد أصبح عندي أخ حقيقي.. إنما كان ينتابني الفضول، وأتمنى أن أعرف مصيره.

وأحيانا كنت أبحث عن ميكا.. ومازلت أبحث عنه إلى الآن..

وكلما جلستُ على المقعد الحجري المطلّ على الخليج.. أو صعدتُ الربوة، عند كومة الحجارة العتيقة.. أفكر في الحديث الذي دار بيني وبين المامبو القادم من إليو.

هناك أمر آخر أريد أن أحدثكِ عنه ياكاميلا.. وأشعر ببعض الخجل من ذكره.. لكني أريد أن أحكي لك عنه حتى لو كان محرجًا.

لم أحدّث أبي وأمي عن ميكا.. لكني قلت لهما إنني التقطتُ بعض الصور الطريفة عندما كانت أمي في المستشفى.. وأعطيت أبي آلة التصوير ليحمّض الصور ويُظهرها.

لن تتصوري أبدا سخافة ما حدث.. تصوري ياكاميلا.. لقد كانت آلة التصوير فارغة.. بلا فيلم!

اتفقنا على أن نسمّي أخي الوليد مايكل.. فقد رأى أبي وأمي أن "چو ومايكل" اسمان منسجمان.

لا أذكر بالضبط كيف اتفقنا على الاسم.. ربما كان لي يد في اختياره.. ولكن، ربما كان أبي وأمي قد اتفقا عليه قبل أن يولَد أخي.

لكنهما لم يكونا متأكدَيْن من أن الوليد سيكون صبيًا.. أنا الوحيد الذي كان متأكدًا من ذلك..

فالحياة اليوم ياكاميلا تختلف عما كانت عليه في صغَري.. ففي المستشفيات الآن، الأشعة فوق الصوتية تخبرنا إن كان الجنين بنتًا أم صبيًا وهو مازال جنينا في بطن أمه.

والآن ياكاميلا.. أظن أنكِ تتساءلين: "هل قابلتُ ميكا حقًا؟.. أم أن الأمر كله كان مجرد حُلم".

إنني أنحني لسؤالك هذا حتى أصل إلى الأرض.. وقد سألته لنفسي كثيرًا..

عندما يرفع شخصان رأسيهما عاليًا.. أعلى من واديهما.. ويلتقيان على قمة الجبل.. فلا يهم اسم الجبل.. ولا يهمهما من أين أتى كل منهما.. لأننا عندما نقف على قمة الجبل.. نشعر كأننا واقفين على قمة العالم..

وفي الليلة التي وُلد فيها أخي الصغير.. كنت أنا على قمة العالم.

وأعتقد ياكاميلا أن كثيرًا من اللقاءات المهمة في حياتنا تقع في أثناء نومنا.

بعض الأحلام التي نراها في منامنا تكون واضحة، وأكثر حيوية، حتى إنها تبدو حقيقية أكثر من حياتنا الحقيقية التي نعيشها أسفل الوادي.

أردت بعد لقائي بميكا أن أصبح رائد فضاء.. وهذا ما فعلتُه فعلاً.

وكلما تأملتُ الفضاء.. خطر ببالي أنني أبحث فيه عن ميكا.

هذه ياكاميلا هي القصة التي وعدتكِ بها.. فقد نويتُ أن أحكي لك عن ميكا عندما كنتِ في زيارتنا في عطلة نصف الفصل الدراسي.. لأنك على وشك أن يكون لك أخت أو أخ صغير.. لتستعدي لاستقباله.

حاولت أن أكون دقيقًا في حكايتي للأحداث.. ولابد أنني قد نسيتُ بعضها، وتخيلت بعضها الآخر.. ولكن هذا ما يحدث عادة للأحداث التي وقعت منذ زمن بعيد.

أظن أننا ننسَى في الليل بعض الذي عايشناه في النهار. لكن عقولنا لا تتوقف عن العمل ونحن نيام: فهذا هو الوقت الذي نغوص فيه في عالَم الأحلام العميق.. كأننا ننزلق خارجين من هذا العالم، إلى عالم مختلف تمامًا.

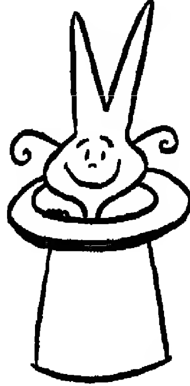
ربما كنا نحلُم في الليل، لأن عقولنا تحاول مَلء الفراغ الذي ينتُج عندما ننام وننسى أحداث يومنا.. ثم يأتي الصباح، فيختفي كل ما حلمنا به، كما تختفي قطرات الندى مع شمس الصباح.

ربما كنا ننشغل طول النهار بما يمُر بنا من أحداث.. فلا يبقى في رءوسنا مكان للأحلام..

.. فمن الصعب أن نتذكر أحلامنا، كصعوبة أن نمسك طائرًا بيدينا..

ولكن، أحيانا نتذكرها، كما يحدث أحيانا أن يأتي إليك الطائر، ويقف على كتفك بكامل حريته واختياره..

مع حُبّي
عمّك چو



☆ بينما هو ينظر من النافذة منتظرًا وصول أخيه المولود الجديد، متأملاً السماء والنجوم والكواكب، رأى جو شهابًا ساطعًا يسقط من السماء، فنظر في الحديقة ليرى صبيا صغيرًا يتدلى من شجرة التفاح... كان ذلك هو ميكا.

☆ من خلال حوار الصديقين جو وميكا يدعونا المؤلف النرويجي الشهير جوستاين جاردر أن ننظر للحياة من حولنا من منظور جديد.

☆ بأسلوبه الشيق العبقري يحرك جاردر - مؤلف قصة عالم صوفي التي تُرجمت لما يزيد على ٤٠ لغة - في القارئ الرغبة في التأمل والمعرفة ومناقشة الآراء المختلفة والأفكار غير التقليدية، وبصرف النظر عن اقتناعنا أو موافقتنا على كل ما في الرواية من افتراضات أو نظريات، إلا أن أهم شيء في هذا العمل العبقري هو أنه دعوة للتفكير والتأمل وتحليل الأمور والمناقشة والحوار لتعرف أنه لا يوجد شيء عادي في هذا الكون لأن كل ما في هذا الكون هو جزء من سر الوجود، ولعل كلمات ميكا نفسه تلخص نتيجة هذا التأمل إذ يقول: «أعتقد أن من لا يؤمن بخالق لهذا الكون... يفتقد حاسة من الحواس... حاسة في غاية الأهمية».

☆ يسر دار الشروق أن تقدم لقارئ العربية الناشئ باكورة مختاراتها من أهم وأجمل كتب الشباب التي أحدثت أثرًا في الفكر العالمي حتى تتاح لهم نفس فرصة أقرانهم حول العالم ليواكبوا هذه الإبداعات أولاً بأول فيستمتعوا بها ويتعلموا منها ويتفاعلوا معها أخذًا وردا، فكرًا ونقدًا، قبولاً ورفضًا.

دار الشروق